الفصل السابع

طوائف من الشعراء

١

شعراء الغزل

كثر الغزل في هذا العصر كثرة مفرطة، حتى ليمكن أن يقال إن جميع الشعراء عنوا بالنظم فيه، وهى عناية أعدته لكي يزدهر ازدهاراً واسعاً، إذ تداوله أفذاذ الشعراء، وصاغوه بعقلياتهم الخصبة الحديثة وما أوتوه من قدرة على التوليد في المعاني القديمة واستنباط كثير من الخواطر والأخيلة الجديدة، وقد مضوا يتسعون بكل صوره القديمة حتى النسيب ووصف الأطلال والديار الدارسة، فقد استبقوا هذا الوصف، وحاولوا أن يبثوا فيه طوابع فكرهم الدقيق وإحساسهم الحضري المرهف، على نحو ما مر بنا في الفصل الرابع.

وقد مضى الغزل يجري في نفس التيارين اللذين اندفع فيهما منذ عصر بني أمية، ونقصد تياري الغزل الصريح والغزل العفيف، وكان التيار الأول أكثر حدة وعنفاً، بسبب انتشار دور النخاسة وما كانت تموج به من إماء وقيان روميات وخراسانيات وغير خراسانيات وروميات، إماء وقيان وكل جنس، وقد أخذن يتسلطن على الحياة العباسية ويشعن فيها كثيراً من صور التحلل الخلقي، مستبدات بمكان الحرائر القديم من الشعراء. ونفس الشعراء كانت كثرتهم من الموالى الذين نبذوا التقاليد الخلقية الإسلامية والعربية، إما بعامل الزندقة والشعوبية، وإما بعامل الترف وما ينتشر معه من فساد الأخلاق، وشتان بين الغزل الصريح في هذا العصر عند مطيع ابن إياس وأبي نواس وأضرابهما وبينه في العصر الأموي عند عمر بن أبي ربيعة

والأحوص وأمثالهما، إذ كانوا يحتفظون بغير قليل من الوقار والحشمة، أما مطيع وأبو نواس وبشار ونظراؤهم العباسيون فقد خرجوا عن كل حشمة ووقار خروجاً يشبه أن يكون ثورة، بل هو ثورة حقيقية، فهم يتحدثون في غزلهم عن غرائزهم النوعية في غير تعفف ولا حياء ولا كرامة، وقد استحدث كثيرون منهم - باستثناء بشار - ضرباً جديداً من هذا الغزل الصريح، وهو الغزل بالغلمان، وهو يصور ما انتهت إليه حياتهم من الفساد، لكثرة الرقيق، وقد أطلقوا لأنفسهم فيه العنان لا يرعوون ولا يستحون.

وكان يجرى بجانب هذا التيار تيار الغزل العفيف، ولكن مجراه أخذ يضيق ضيقاً شديداً بالقياس إلى عصر بني أمية إذ كان يتسع حتى يشمل بوادي الحجاز وحتى تجري أسراب منه في مكة عند أمثال عبد الرحمن الجُشمي والملقب بالقس لنسكه وفى المدينة عند أمثال عروة بن أذينة. ومن أعلامه في البوادي قيس بن ذريح وجميل بن معمر العذري، حيث نجد الحب النقي الطاهر الذي يملك على الشاعر كل عواطفه وأهوائه، حتى ليصبح ضرباً من الهيام القوي الحاد الذي يدفع الشاعر إلى التغني بمحبوبته في شعر عذب لا يخدش حياء، شعر يموج بالحرمان وحرارة العشق وشدة الظمأ الذي لا ينتهي. وطبيعي أن يضعف هذا التيار في العصر العباسي الأول الذي قلما عرف فيه الشعراء العفة والطهر، ومع ذلك فقد بقيت به بقية عند العباس بن الأحنف وعند بعض الشعراء الذين هاموا ببعض الجواري ثم بعت وضرب بينهم وبينهن حجاب صفيق، فعاشوا يتعذبون بالحب، وعاش الحب في قلوبهم قوياً حاداً، ومن خير من يصور ذلك علي بن أديم الكوفي الذي أحب جارية تسمى "منهلة" منذ صغرها، حتى إذا أدركت باعها أهلها لبعض الهاشميين، فطار لبه، وبكاها بكاء حاراً بمثل قوله[1]:

صاحوا الرحيلُ وحثَّني صَحْبي ... قالوا الرواح فطيَّروا لُبِّي

لا صَبْرَ لي عند الفِراق على ... فَقْد الحبيب ولوعةِ الحبِّ

---

١ أغاني (طبع دار الكتب) ١٥/ ٢٦٧

ويقول أبو الفرج: "له حديث طويل معها في كتاب مفرد مشهور صنعه أهل الكوفة لهما، فيه ذكر قصصهما وقتاً وقتاً وما قال فيها من الأشعار، وأمرهما متعا لم عند العامة" وفيها يقول [1]:

يا نُصْبَ عينيَ لا أَرى ... حيث التفتُّ سواكِ شَيَّا

إني لَمَيْتٌ إن صَدَدْ ... تِ وإن وصلتِ رجعتُ حَيَّا

وعلى شاكلته محمد بن أمية، وكان يهوى جارية تسمى خداع رآها تغنى ببعض دور النخاسة، فشغف بها شغفاً شديداً واتصلت زياراته لها، وبادلته حباً بحب، ولقيته، ولكنها ظلت تدافعه عن نفسها، وكثيراً ما كانت تعده الزيارة ولا تزوره، وهو يقول لها دائماً إني أحبك إني أنتظرك، من مثل قوله[2]:

رُبَّ وَعْدٍ منكِ لا أنساهُ لي ... أوجبَ الشكرَ وإن لم تفعلي

أَقطعُ الدهرَ بظَنٍّ حَسَنٍ ... وأجَلِّي غَمْرَةً ما تَنْجَلِي

كلما أَمَّلْتُ يوماً صالحاً ... عرضَ المكروهُ لي في أَملي

وأَرى الأَيام لا تُدْنِي الذي ... أَرتجي منكِ وتُدْني أَجلي

وبينما هو يمنى نفسه باقتطاف ثمرة الحب اشتراها بعض ولد المهدي، فحجبت عنه وانقطع ما بينهما إلا مكاتبة ومراسلة. واستقر حبها في قلبه وملك عليه كل شئ من أمره، فمضى يتغنى بها طويلاً، وكان خُلاَّنه يلومونه ويقولون له: إنها تبخل عليك بودها، فدعها إلى غيرها، فينشدهم مثل قوله[3]:

أَأَنْ حُجبَتْ عنى أَجود لغيرها ... بودِّي وهل يُغْري المحبَّ سوى البُخْلِ

أَسَرُّ بأَن قالوا تَضِنُّ بودِّها ... عليك ومن ذا سُرَّ بالبُخْل من قبلي

---

١ أغاني ١٥/ ٢٦٥

٢ أغاني ١٢/ ١٤٤

٣ أغاني ١٢/ ١٥٣

وبونٌ بعيد بين حرارة هذا الغزل العفيف والغزل المماثل له في عصر بني أمية الذي نقرؤه عند قيس بن ذريح وأضرابه، فإن غزلهم يصور حباً جامحاً، وكأن في صدورهم شواظ نار، فهم يألمون كما لم يألم أحد، ألماً تعجز النفوس العادية عن احتماله، ألماً يعصف بهم كالسيل المندفع الذي لا يترك لهم روية ولا أناة، إنما يترك لهم الحزن الممض والدموع الغزار، ومن أجل ذلك نقول: إن الغزل العذري في العصر العباسي الأول قد أخذ يضيق مجراه، لأنه لا يبلغ من التأثير في النفس والقلب ما يبلغه الغزل العفيف الأموي، وكأنما أفسدت الحضارة هذا الفن، فإذا هو يجري فيه التكلف ولا يكاد يؤثر في العاطفة والشعور إلا قليلاً:

على أنه من الخطأ أن نضع حداً فاصلاً في هذا العصر بين الغزل العفيف والغزل الصريح فإنه تلقانا عند المصرحين الذين لا يحتشمون ولا يتوقَّرون، والذين يعبرون عن الحب الجسدي حب الغرائز الذي لا يخلو من الفسوق والإثم أسراب مختلفة من الحب المبرح تجعلهم يقتربون أحياناً من أصحاب الحب العفيف، واقرأ في بشار مثلاً فستجد عند كثيراً من الغزل الآثم، وستجد بجانبه غزلاً، فيه لوعة، وفيه ألم وسهاد، وفيه صبوة يسودها غير قليل من الاحتشام، على نحو ما يلقانا في أشعاره لصاحبته عبدة، ومثله أبو نواس في أشعاره لجنان جارية الثقفيين، وقد ظلت تحلق بعيداً عنه وراء السحب، والحب يضنيه ويبرح به، ونضرب مثلاً من شعر هؤلاء الخليعين الماجنين يصور كيف كان الحب أحياناً يستأثر بكل ما في قلوبهم من هوى وعاطفة، وكيف كانوا يتعمقون في دقائقه تعمقاً يفضي إلى كثير من السعة والجمال، وهو هذه القطعة التي أنشدها صاحب الأغاني لآدم حفيد عمر ابن عبد العزيز، وكان خليعا ماجناً في أول أمره، وفيها يقول لصاحبه له[1]:

أَحبُّكِ حُبَّيْنِ: لي واحدٌ ... وآخَرُ أنَّكِ أَهلٌ لذاكِ

فأَما الذي هو حبُّ الطِّباعِ ... فَشْئٌ خُصِصْتِ به عن سواكِ

وأما الذي هو حبُّ الجمالِ ... فلستُ أَرى ذلك حتى أَراكِ

ولستُ أَمنُّ بهذا عليكِ ... لك المَنُّ في ذا وهذا وذاك

---

١ أغاني ١٥/ ٢٨٩

وقد أدخلت رابعة العدوية تعديلاً قليلاً على هذه القطعة، فأصبحت أما للشعر الصوفي كله على نحو ما سنرى في حديثنا عن شعراء الزهد. وفي الأغاني حشد هائل من أشعار عباسية تتخلص من المادة وأدرانها وتصور جحيم الحب ونعيمه، كانت تجري على ألسنة المجان وأشباههم.

ومر بنا في الفصل الرابع أن شعراء هذا العصر استخرجوا كثيراً من دفائن المعاني في غزلهم، فقد كان عقلهم خصباً يقتدر على تشعيب المعاني وتحليلها واستنباط كثير من دقائقها. وكثير من غزلهم لا يصور ذلك فحسب، بل يصور أيضاً حسهم المترف الدقيق وشعورهم الرقيق المرهف، وقد صورنا ذلك من بعض الوجوه في حديثنا عن أعلامهم في الفصل الخامس. وظاهرة ثالثة هي كثرة العبارات اللينة في غزلهم، وهي شئ طبيعي مرده إلى حياتهم المتحضرة وأنهم كانوا يتجهون بأكثر غزلهم إلى الجواري المغنيات، ولم يكنَّ متبدِّيات إنما كن متحضرات، فكانوا يختارون لهن اللفظ السهل البسيط الذي يلمس القلوب لمساً بدون أي حجاب. وظاهرة رابعة هي شيوع الأوزان المجزوءة والقصيرة في هذا الغزل، وقد أوضحنا في كتاباتنا عن عصر بني أمية نشوء هذه الظاهرة في شعر الغزل الأموي بسبب معانقته لنظرية الغناء التي استحدثها الموالي الأجانب، وكيف أن هذه النظرية دفعت الشعراء دفعاً إلى الملاءمة الدقيقة بين غزلهم وأصوات الغناء، ووضعه بحيث يؤدي ما يريدونه من مد أصواتهم بالألحان والهمس بها، وهى غاية أحدثت في الأوزان القديمة كثيراً من التجزئة وكثيراً من صور الزحافات، ومازالت هذه الصور تتسع حتى استكشف الوليد بن يزيد وزن المجتث.

وقد بسطنا في كتابنا "الفن ومذاهبه في الشعر العربي" كيف أن هذه الظاهرة نمت في غزل العباسيين بنمو الغناء، وكيف دفعت إلى ظهور أوزان جديدة، هي أوزان المقتضب والمضارع والمتدارك. وفى الفصل الرابع من هذا الكتاب تصوير موجز لذلك. وينبغي أن ننبه هنا إلى الغزل هو الذي دفع الشعراء دفعاً إلى التحوير في الأوزان القديمة تحويراً نفذوا منه إلى كثير من صور التجديد فيها وفي القوافي.

وظاهرة خامسة تقترن بالجواري اللائى كان ينظم فيهن الشعراء، وذلك أن كثيراً منهن كن مثقفات يحسن صوغ الشعر ونظمه، فكان الشعراء يراسلونهن، وكانوا أحياناً يفضون إليهن

ويتطارحون معهن شعر الغزل. ومن أشهرهن في هذا الباب عَريب جارية المأمون ومتيم جارية علي بن هشام ودنانير جارية البرامكة وقد عقد ابن المعتز في آخر كتابه "طبقات الشعراء" فصولاً لطائفة منهن، على رأسهن عنان جارية الناطفي، ويقول ابن الجراح: "كانت تجلس للشعراء ويجتمعون إليها، فيلقى عليها كل رجل منهم الأبيات الغريبة والمعاني النادرة فتجيبه بديها[1]" ويروى بعض محاوراتها مع أبي نواس، من ذلك أنه دخل عليها فوجد الناطفي مولاها قد ضربها وهي تبكي فقال:

بكتْ عنانٌ فجرى دَمْعُها كالدرِّ قد تُوبع في خيطهِ

فقالت، والعبرة في حَلْقها:

فليت من يضربها ظالماً تجفُّ يمناه على سَوْطهِ

ويروى ابن الجراح أن شخصاً وجد بيتاً في كتاب، أعجبه، فطلب من يجيزه وعز عليه الطلب، فلجأ إليها، وأنشدها البيت:

ومازال يشكو الحبَّ حتى سمعتُه تنفَّس من أَحشائهِ أو تكلَّما

فما لبثت أن قالت:

ويبكي فأَبكي رحمةً لبكائهِ إذا ما بكى دمعاً بكيت له دماً

وقد أشاع هؤلاء الجواري الشواعر كثيراً من الظرف والرقة في الغزل العباسي، إذ كن يعجبن باللمحة الدالة والخاطرة الدقيقة. وغيرهن من الجواري كن يشاركنهم في تذوق الشعر، وكن يكتبن ما يستحسن منه على عصائبهن ومراوحهن كما مر بنا في الفصل الثاني. وكل ذلك عمل على ازدهار الغزل في هذا العصر ازدهاراً واسعاً، ونحن نقف عند شاعرين من شعرائه، أحدهما من أصحاب الغزل العفيف، وثانيهما من أصحاب الغزل الصريح، ولكن دون نبو على الذوق ودون ما يؤدى النفوس المهذبة، وهما العباس بن الأحنف وربيعة الرَّقِّي.

١

العباس بن الأحنف[1]

عربي من بني حنيفة، كان آباؤه ينزلون في خراسان، واتصلوا بالعباسيين ولمع منهم عمه حاجب إذ انتظم بين رجال الدولة، ومنشأ العباس ومرباه ببغداد، ويظهر أنه نشأ في نعمة وثراء، جعلاه ينصرف عن شعر المديح الذي كان يجذب إليه عامة الشعراء طلباً للنوال والعطاء. وقد أخذ يعيش حياة مترفة، يختلط فيها بالشعراء من أمثال أبي نواس وغير أبي نواس، ولكن دون أن يتردى في خلاعتهم ومجونهم. وقد يحضر مجالس الأنس والشراب ولكن دون تعمق ودون إثم، وفى ذلك يقول ابن المعتز: "كان يتعاطى الفتوة على ستر وعفة وله مع ذلك كرم ومحاسن أخلاق وفضل من نفسه، وكان جواداً لا يليق درهما ولا يحبس ما يملك". وفى أشعاره وصف للكرة والصولجان يدل على أنه كان يمارس هذه الرياضة. ويقولون إنه كان فيه ظرف وكأنه كان مثال العربي البغدادي المهذب في عصره الذي أخذ بأسباب الترف والنعيم أخذاً كان له أثر في ذوقه المصفى المهذب وشعوره الرقيق المرهف وقد مضى ينفق حياته في التغني بعواطفه وحبه، وفى ذلك يقول أبو الفرج: "كان العباس شاعراً غزلاً ظريفاً مطبوعاً.. وله مذهب حسن ولديباجة شعره رونق ولمعانيه عذوبة ولطف ولم يكن يتجاوز الغزل إلى مديح ولا هجاء ولا يتصرف في شئ من هذه المعاني، وقدمه أبو العباس المبرد في كتاب الروضة على نظرائه وأطنب في وصفه. وقال: رأيت جماعة من الرواة للشعر يقدمونه، وقال: كان العباس من الظرفاء، ولم يكن من الخلعاء، وكان غزلاً ولم يكن فاسقاً، وكان ظاهر النعمة ملوكي المذهب شديد التترف، وذلك بين في شعره، وكان قصده الغزل وشغله النسيب، وكان حلواً مقبولاً غزلاً غزير الفكر واسع الكلام كثير التصرف في الغزل وحده، ولم يكن هجاء ولا مداحاً". وقد فتح اشتهاره بالغزل باب قصر الرشيد أمامه، حتى أصبح من ندمائه، وحتى صحبه في غزواته بأرمينية وأذربيجان، ذلك أنه كان إذا غاضب إحدى جواريه أو أدلت عليه أمره بصنع أبيات يغني فيها إبراهيم الموصلي، فتعود صاحبته إليه، ويتصل بينهما ما انقطع، من ذلك أنه غاضب ماردة أم المعتصم،

---

١ انظر في العباس وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٥٤ وابن قتيبة ص ٨٠٣ والأغاني (طبعة دار الكتب) ٨/ ٣٥٢ و ١٦/ ٣٤٣ – ٣٤٥ و (طبعة الساسي) ١٥/ ١٣٥ وتاريخ بغداد ١٢/ ١٢٧ وشذرات الذهب ١/ ٢٣٤ ووفيات الأعيان لابن خلكان ومعجم الأدباء ١٢/ ٤٠ وقد نشرت ديوانه وحققته عاتكة الخزرجي وطبعته بمطبعة دار الكتب المصرية.

وتوقع أن تبدأه بالترضي، فلم تفعل حتى أقلقته وأرقته، وصار بأمر عيش، وعرف ذلك جعفر البرمكي، وقيل الفضل بن الربيع، فأعلم العباس القصة وطلب إليه أن يقول في ذلك شيئاً، فلم يلبث أن قال:

العاشقان كلاهما متجنِّبُ ... وكلاهما مُتَعَتِّبٌ متغضِّبُ

صدَّتْ مغاضبةً وصدَّ مغاضباً ... وكلاهما مما يعالجُ مُتْعَبُ

راجعْ أَحبَّتَك الذين هجرتَهم ... إن المتَّيم قلما يتجنَّبُ

إن التجنُّبَ إن تطاول منكما ... دَبَّ السُّلوُّله فعَزَّ المَطْلَبُ

وألقاها إلى إبراهيم الموصلي فغنى بها الرشيد، فلما سمعها بادر إلى ماردة فترضاها. ويقال إنها أمرت للعباس وإبراهيم بعشرين ألف درهم مناصفة وأمر لهما الرشيد بأربعين ألفاً.

وانعقدت الصلة بينه وبين محمد بن منصور بن زياد الملقب بفتى العسكر، وتصادف أن رأى عنده جارية جميلة تسمى فوز، فوقعت في قلبه، وأخذ يكثر من زياراته، وهو إنما يريدها، وعرفت حبه، فكانت تصدعنه، وهو يزداد حباً وشكوى من أنها لا تقبل عليه، وأكثر من تصوير إعراضها عنه بمثل قوله:

قالتْ ظلومُ سميَّة الظُّلْم ... مالي رأَيتك ناحلَ الجِسْمِ

يا مَنْ رَمَى قلبي فأَقْصَده ... أنت العليم بموضع السَّهْمِ[1]

وأخذ يكثر من شكواه وتضرعه مصوراً سهاده وما دلعته من نيران العشق في قلبه، وغدا مستهاماً بها يحبها كل الحب ويفتن بها كل الفتون، حتى لكأنها غدت ليلى وغدا المجنون، فهو دائماً يصف صبابته بها ووجده وجداً لم يجده أحد، وجداً يتعمقه حتى ليصطلي بناره المحرقة، وقد مضى صور ذلك لا في قصيدة أو قصائد معدودة وإنما في ديوان رائع، تجد فيه النفوس غذاء روحياً ممتعاً، لأنه يرتفع عن الحس والمادة ارتفاع الشعر العذري الأموي، بما يصف من حب لا يخمد أواره، من مثل قوله:

---

١ أقصده: أصابه

الحبُّ أَول ما يكون لجاجة ... تأتي به وتسوقه الأَقدارُ

حتى إذا سلك الفتى لُجَجَ الهوى ... جاءَتْ أمورٌ لا تُطاق كِبارُ

نَزَف البكاءُ دموعَ عينك فاسْتَعِرْ ... عيناً لغيرك دمعها مدرارُ

من ذا يُعيرك عَيْنه تبكي بها ... أَرأَيتَ عيناً للبكاء تُعارُ

وقوله:

أُحْرَمُ منكم بما أَقولُ وقد ... نال به العاشقون مَنْ عشقوا

صرتُ كأَني ذُبالةٌ نُصِبَتْ ... تضيءُ للناس وهْي تحترقُ

وكانت تكثر بينه وبينها المراسلات، وربما زارته زورة قصيرة ومضت، مخلِّفة وراءها حسرة وآلامه وعذابه، وربما اضطرت إلى أن تهجره طويلاً أو قصيراً أو أن تزور عنه في بعض زياراته لها، فكان يجزع أشد الجزع ويبكي أحر البكاء بمثل قوله:

أَبكي الذين أَذاقوني مودَّتهم ... حتى إذا أَيقظوني للهوى رَقَدُوا

جاروا عليَّ ولم يوفوا بعهدهمُ ... قد كنت أَحسبهم يوفون إن عَهِدوا

لأخرجنَّ من الدنيا وحبُّكمُ ... بين الجوانح لم يشعر به أَحَدُ

وقوله:

لما رأَيت الليل سَدَّ طريقَهُ ... عني وعذَّبني الظلامُ الرَّاكِدُ

والنَّجْمُ في كبدِ السماء كأَنه ... أَعمى تحيَّر ما لديهِ قائدُ

ناديتُ مَنْ طرد الرقادَ بصَدِّه ... مما أُعالج وهْو خِلْوٌ هاجد

ألقيتَ بين جفون عيني حرقةً ... فإلى متى أَنا ساهرٌ يا راقد

وفي قصيدة هذه المقطوعة يقول:

والله لو أَن القلوبَ كقلبها ... مارقَّ للولد الصغير الوالِدُ

وخرجت من ملك محمد بن منصور إلى ملك بعض أمراء البيت العباسي وحج بها، فمضى يبكيها بدموع غزار مصوراً حبه لها وهيامه في أشعار كثيرة من مثل قوله من رسالة شعرية أرسل بها إليها:

أَزينَ نساء العالمين أَجيبي ... دعاءَ مشوقٍ بالعراق غريبِ

كتبتُ كتابي ما أُقيم حروفَه ... لشدة إعوالي وطول نحيبي

أَخطُّ وأَمحو ما أَخطُّ بعبرةٍ ... تسحُّ على القِرْطاس سَحَّ ذَنوب[1]

أَيا فوزُ لو أَبصَرْتِني ما عرفتني ... لطول نحولي بعدكم وشحوبي

وأَنتِ من الدنيا نصيبي فإِن أَمت ... فليتكِ من حُور الجنان نصيبي

أرى البَيْن يشكوه المحبون كلهم ... فياربِّ قرِّبْ دارَ كلِّ حبيب

وعادت، وعاد له عذابه بها كما لم يتعذب أحد، وقد ظل يهتف باسمها وحبها حتى وافته منيته سنة مائة واثنتين وتسعين. ويقال إنه خرج مع غلام له إلى بعض الرياض، وقد اعتراه ضعف شديد، فاستلقى تحت شجرة ورفع طرفه، وهو لا يكاد يرفعه ضعفاً، وأنشأ يقول:

يا سقيمَ الجسم من مِحَنِهْ ... مُفْرداً يبكي على شَجَنِهْ

كلما جَدَّ البكاءُ به ... دَبَّتِ الأَسقام في بدنه

ثم أغمى عليه، وأقبل طائر فوقع على الشجرة، وجعل يغرد، فسمع تغريده، وفتح عينيه، وقال:

ولقد زاد الفواً شَجَى ... طائرٌ يبكي على فَنَنِه

شَفَّه ما شفَّني فبكى ... كلُّنا يبكي على سَكنه

ثم تنفس تنفساً مديداً فاضت فيه نفسه.

---

١ الذنوب: الدلو المملوءة

وواضح من كل ما قدمنا أن غزل العباس عذري طاهر نقي وأنه يمتاز بجزالة اللفظ مع عذوبته كما يمتاز بغزارة المعاني والخواطر حتى لكأنما يستمد من معين في نفسه لا ينضب، وكان يعمد أحياناً إلى شئ من صور البديع، غير أنها تأتي عفواً، ولا تؤثر أي تأثير في قوة العاطفة وانطلاقها كالسيل المندفع.

ربيعة الرَّقيّ[1]

هو ربيعة بن ثابت، من أهل الرَّقّة، بها مولده ومنسؤه، وكان ضريراً، وتفتحت شاعريته مبكرة، فأخذ شعره يشيع، حتى رقى إلى سمع المهدي، فأشخصه إليه، فمدحه بعدة قصائد، وأثابه عليها عطاء جزيلاً. غير أنه حسن إلى موطنه، فعاد إليه، وكان لا يبرحه إلا قليلاً، مما كان سبباً في إخمال ذكره، لبعده عن بلاط الخلفاء ومخالطة الشعراء في بغداد. ولم ترو له كتب الأدب شيئاً من مديحه في المهدي إنما روت له مقطوعة من قصيدة بديعة قالها في العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس صفيّ الرشيد، وفيها يقول:

لو قِيل للعباس يا بن محمَّدٍ ... قل: لا، وأَنت مخلَّدٌ، ما قالها

ما إنْ أَعُدُّ من المكارم خَصْلةً ... إلا وجدتك عَمَّها أو خالَها

وإذا الملوك تسايروا في بلدةٍ ... كانوا كواكبها وكنتَ هِلالَها

وجزاه جزاء بخساً إذ بعث إليه بدينارين، فجُنَّ غيظاً وهجاه هجاء مريراً. وعلم الرشيد القصة فغضب على العباس، وأمر لربيعة بثلاثين ألف درهم وخلعه. وممن صلى هجاءه لنقص عطائه معن بن زائدة، ومنهم يزيد بن أسيد السُّلمي، وكان قد رده رداً غير جميل، بينما أوسع له في العطاء يزيد بن حاتم المهلبي، فمضى يقول أبياته السائرة:

لشتَّان ما بين اليزيدين في النَّدَى ... يزيد سُلَيْمٍ والأَغرّ ابن حاتمِ

يزيد سُلَيمٍ سالم المال والفتى ... أخو الأَزْد للأَموال غير مسالمِ

---

١ انظر في ربيعة وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ١٥٧ والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٦/ ٢٥٤ ومعجم الأدباء ١٠/ ١٣٤ ونكت الهميان ص ١٥١

فهَمُّ الفتى الأَزديِّ إتلافُ مالِه وهَمُّ الفتى القيسيِّ جَمْعُ الدراهمِ

فلا يحسب التَّمْتامُ أني هجوتُه ولكنني فضَّلتُ أَهل المكارم

وقد تعلق بغير جارية، مما جعله ينظم غزلاً كثيراً، ويقول ابن المعتز: أما شعره في الغزل فإنه أشعر أخل زمانه جميعاً، وما أجد أطبع ولا أصح غزلاً منه، ويقول أيضاً: "كان ربيعة أشعر غزلاً من أبي نواس لأن في غزل أبي نواس برداً كثيراً وغزل هذا سليم سهل عذب". وغزله يسلك في الغزل الصريح إذ كان فيه لهو حتى لقب بالغاوي، وممن كان يهواهن جارية يقال لها "عشمة" كانت أمة لرجل من أهل قرقيسياء، وقعت في قلبه، فظل يتغنى بها على شاكلة قوله:

أَعَشْمَةُ أَطْلِقِي العَلَقَ الرَّهينا بعيشِك وارْحَمِي الصَّبَّ الحزينا[1]

تعلَّق زائراً لكِ فارْحميهِ فقد أَورثتِ زائرَكِ الجُنونا

ولما أن رآك الناسُ قالوا تعالى الله ربُّ العالمينا

فقد أَعطاكِ ربُّك فأَشْكُريه جمالاً فوق وَصْفِ الواصفينا

إذا أَقبلْتِ رُعْتِ الناس حُسْنا وإن أدبرت قَيَّدْتِ العُيونا

وله فيها أشعار كثيرة، ويظهر أنها أول جارية شغف بها، وقد شغف من بعدها بجارية من جواري الكرخ ببغداد تسمى (رُخاص) كما شغف بأخرى تسمى داحا، وفيها يقول:

صَاحِ إني غيرُ صَاحي أبداً من حُبِّ داحِ

أَنا والله قتيلٌ لكِ من غير جِراحِ

لا بسيفٍ قَتَلتني لا، ولا سُمْرِ الرِّماحِ

أَنتِ للناسِ قتولٌ بالهوى لا بالسِّلاح

وبشكلٍ وبدَلٍّ وبحُسْنٍ ومُزَاحِ

وبعينين صَيُوديـْ ـنِ وثَغْرٍ كالأقاحِي

---

١ يريد بالمعلق المعلق بالحب

ليتني كنتُ حَماماً لكِ مقصوصَ الجناحِ

وله في جارية تسمى "سعاد" أشعار كثيرة أيضاً يصور فيها حبه وهيامه وما كانت تراسله به من رسائل، وفى إحدى قصائده فيها يقول:

الحبُّ داءٌ عَيَاءٌ لا دواءَ لَهُ إلا نَسِيمُ حبيبٍ طَيِّب النَّسَمِ

أَو قبلةٌ من فَمٍ نِيلَتْ مُخالَسَةً وما حرامٌ فم أَلصقته بفَمِ

ويظهر أن غزله كان يذيع في عصره وينتشر على كل لسان، حتى ليقال إن جواري المهدي هن اللائي دفعنه ليحضره من الرقة حتى يستمعن منه إلى شعره ويتصل بهذا الانتشار ما يروى من أن صانعي البُسط كانوا يكتبون أشعاره عليها، فقد حدث بعض العباسيين أنه رأى في دور بساط قديم من بسط دار الخلافة هذه الأبيات:

وتزعم أَني قد تبدَّلتُ خُلَّةً سواها وهذا الباطل المتقوَّلُ

لحا الله من باع الصديقَ بغيرِهِ فقالت نعم حاشاك إن كنت تفعلُ

ستَصْرِمُ إنساناً إذا ما صَرَمْتَنِي يحبك فانظرْ بعده من تبدَّلُ

وشعر ربيعة كله على هذا النحو المصقول، الذي يروع بسلاسته وجمال ديباجته ونصاعة ألفاظه، مع الطبع المتدفق والمعاني اللطيفة، ويقال إنه توفي سنة ١٩٨ للهجرة.

٢

شعراء المجون والزندقة

كثر شعراء المجون وما يرتبط به من وصف الخمر في هذا العصر كثرة مفرطة، وقد عملت على ذلك أسباب مختلفة، فإن كثرة الشعراء كانت من الفرس، وكان كثير منهم يظهر الإسلام ويبطن الزندقة والإلحاد، وساعد على اضطراب النفوس وتسلط الشك على العقول كثرة المقالات والنحل الدينية وشيوع المذاهب الفلسفية مما جعل كثيرين يستهترون بقيم المجتمع الإسلامية، بل لقد كان من بينهم من يريد تحطيمها تحطيماً. وسبب ثان يرجع إلى كثرة الرقيق ودور النخاسة التي كأنما كانت أسواقاً للعبث. وهو عبث صحبه غير قليل من الفجور، حتى ليمتد إلى الغزل بالغلمان غزلاً يصور - عند أبي نواس وأضاربه - انحطاطاً خلقياً شنيعاً. وسبب ثالث هو كثرة اتخاذهم للجواري والإماء، مما أدى إلى انحلال الروابط الاجتماعية لتسلطهن على الحياة المنزلية، إذ أخذن مكان المرأة العربية الحرة، وكن مختلفات الأجناس، وكثيرات منهن كن قد نشئن على اللهو والمجون والابتذال والخلاعة تنشئة لم تكن تعرفها المرأة العربية المحصنة.

وطبيعي لذلك كله أن تنتشر موجة حادة من المجون، ومن غير شك تعد الدولة مسئولة منذ المهدي عن انتشار هذه الموجة، ومعروف أنه اتخذ ديواناً للزنادقة وكان حرياً به أن يتخذ ديواناً آخر للمجون، ولكنه لم يصنع. وأخذت الموجة تبلغ حدتها العنيفة منذ عصر الرشيد ولكنه لم يحرك ساكناً لا هو ولا من تلاه من الخلفاء، بل لقد اسهم فيها ابنه الأمين إسهاماً واسعاً، حتى غدا القصر كأنه حانة، إن صح ما يرويه الرواة. ونفس الفقهاء والمتكلمين مسئولون إلى أبعد حد عن شيوع هذا الفسق والفساد وقد مضوا يشغلون عن المجتمع بمباحثهم الخاصة مهملين ما يدعو إليه الدين من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. ومضى الشعراء من حولهم في الكوفة والبصرة وبغداد يمعنون في المجون والفجور، وحقاً صرخ شيوخ البصرة من أمثال واصل ومالك بن دينار في وجه بشار وغزله المادي الصريح الذي يفسد به نساء البصرة وشبانها، وارتفع صياحهم إلى سمع المهدي، فنهاه عن هذا الغزل، وانتهى على كره ومضض، غير أن

شيوخ الكوفة وبغداد لم يرتفع لهما صوت. ونفس شيوخ البصرة بعد عصر بشار لزموا الصمت الطويل، مع اشتداد الفسق والغزل المفحش بالإماء والغلمان، فقد كان لا يعرف الغزل الأخير، وكان لا يبلغ من الإفحاش في غزل الإماء ما بلغه الجيل التالي له.

والذي لا شك فيه أن الكوفة سبقت البصرة وبغداد جميعاً لهذا العصر في الفسق والمجون، إذ غرقت فيهما إلى أذنيها، وكان مما أعد لذلك دار نخاسة كبيرة قامت بها منذ أواخر عصر بني أمية، وهي دار ابن رامين، وكان قد جلب إليها كثيرات من قيان الحجاز وإمائه المغنيات أمثال سعدة ورُبيجة وسلاّمة الزرقاء، وتولع بهن كثير من شباب الكوفة وغيرهم أمثال إسماعيل بن عمار ومحمد بن الأشعث وشُراعة بن الزَّند بوذ، ونظموا فيهن كثيراً من الأشعار المادية التي لا تخلو أحياناً من الفحش[1]. ولم تلبث أن ظهرت جماعة كبيرة من المجان الخلعاء أمثال والبة ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد.

وكان والبة شيطاناً مريداً، فهو يسرف في المجون والخلاعة والغزل الشاذ بالغلمان وكان ينتسب في قبيلة أسد[2]، وهي والعرب جميعاً بُرآء منه ومن فحشه وشذوذه، وقد أعافهم منه أبو العتاهية، إذ نسبه في الروم[3]، وهو الذي أدب أبا نواس وأفسده فيما يقول الرواة، ويقول أبو الفرج إنه كان خبيث الدين. وقد ذهب شعره إلا أطرافاً رواها أبو الفرج وابن المعتز، وهي تصور كيف كان يجاهر بالفسق والمعصية. وممن خلفوا أباناً وجماعته على هذه المجاهرة بكر بن خارجة مولى بني أسد، وكان وراقاً ضيق العيش مقتصراً على التكسب من الوراقة وصرف أكثر ما يكسبه إلى النبيذ، وكان معاقراً للشراب في منازل الخمارين وحاناتهم وتعشق غلاماً نصرانياً يقال له عيسى بن البراء العبادي الصيرفي، وله فيه قصيدة مزدوجة ذكر فيها النصارى وشرائعهم وأعيادهم وأديرتهم، وفيه يقول[4]:

زُنَّارهُ في خَصْره معقودُ كأَنه من كبِدي مقدودُ

---

١ أغاني (طبعة دار الكتب) ١١/ ٣٦٤ وما بعدها و ١٥/ ٥٦ وما بعدها.

٢ أغاني (طبعة الساسي) ١٦/ ١٤٢ وانظر في والبة ابن المعتز ص ٨٧ وتاريخ بغداد ١٣/ ٥١٨

٣ أغاني ١٦/ ١٤٣ وما بعدها

٤ أغاني (طبعة الساسي) ٢٠/ ٨٧

ولم يلبث كثير من شعراء البصرة أن أمعنوا وراء شعراء الكوفة في هذا الفساد الخلقي، يقودهم الخاركي، وفيه يقول أبو نواس: "ما مجنت ولا خلعت العذار حتى عاشرت الخاركي فجاهر بذلك ولم يحتشم فامتثلنا نحن ما أتى به وسلكنا مسلكه، ونحن ومن يذهب مذهبنا عيال عليه"[1]. وكان طبيعياً أن ينقل شعراء البصرة والكوفة هذا الفساد والتحلل الخلقي إلى بغداد منذ أخذوا يفدون عليها ويقيمون بها في عهد المهدي ومن تلاه من الخلفاء، يتقدمهم أبو نواس. ومن مجّانها المشهورين الرقاشي، يقول أبو الفرج: "كان ماجناً متهاوناً بمروءته ودينه، وقصيدته التي يوصي فيها بالخلاعة والمجون مشهورة سائرة في الناس، مبتذلة في أيدي الخاصة والعامة وهى التي أولها:

أَوصَى الرقاشيُّ إلى إخوانِه وصيَّةَ المحمودِ في نُدْمانهِ"[2]

ويقول ابن المعتز إنها كانت في الغلمان وشرب الخمر والقمار والهراش بين الديكة والكلاب[3]. وقد اتسعوا في الحديث عن الخمر ورائحتها ونفحتها ودنانها وسقاتها وحاناتها وأديرتها، وتعرضوا طويلاً للرهبان والرهابت وزنانيرهم.

ونرى أبا الفرج حينما يتحدث عن كثير من هؤلاء الخلعاء الماجنين ينص على خبث دينهم أو على زندقتهم ومروقهم من الإسلام وشريعته الغراء على نحو ما نرى في حديثه عن حماد الرواية وحماد عجرد وطيع بن إياس، وكأنهم كانوا على مذهب مزدك الذي يدعو إلى اللذات واقتراف الكبائر. وكان من الزنادقة نفر أشربوا حب مذهب ماني وما فيه من الزهد والانصراف عن متسع الحياة وخير من يمثلهم صالح بن عبد القدوس الأزدي.

على أنه ينبغي أن نلاحظ أن كثيرين ممن تورطوا حينئذ في الخمر والمجون لأوائل حياتهم، عادوا فتابوا إلى ربهم وأنابوا، ومن خير من يمثل هذا الفريق آدم ابن عبد العزيز حفيد عمر بن عبد العزيز، يقول أبو الفرج: "كان في أول أمره خليعا ماجناً منهمكاً في الشراب، ثم نسك بعدما عمر ومات على طريقة محمودة" ويروى أن المهدي شك في أنه زنديق، فأمر بضربه

---

١ ابن المعتز ص ٣٠٦

٢ أغاني (طبعة دار الكتب) ١٦/ ٢٤٦

٣ ابن المعتز ص ٢٢٦

ثلاثمائة سوط على أن يقر بالزندقة، فقال: والله ما أشركت بالله طرفة عين، فقال له المهدى: فأين قولك:

اسْنِي واسْقِ خليلي ... في مَدى الليل الطويلِ

قهوةً في ظل كَرْمٍ ... سُبِيَتْ من نهر بِيل[1]

في لسان المرءِ منها ... مثلُ طعم الزَّنْجَبيل

قُلْ لمن يلحاك فيها ... من فقيهٍ أَو نبيل[2]

أَنت دَعْها وارْجُ أُخرى ... من رحيق السَّلْسبيل[3]

تعطش اليومَ وتُسْقَى ... في غَدٍ نَعْتَ الظُّلولِ

فقال للمهدي: كنت فتى من فتيان قريش، أشرب النبيذ، وأقول ما قلت على سبيل المجون، والله ما كفرت بالله قط، ولا شككت فيه. فخلى شبيله ورق له[4]. وأمثال آدم كانوا كثيرين. ونحن نقف عند ثلاثة من أبرز شعراء الزندقة والمجون وهم حماد عجرد ومطيع بن إياس وصالح بن عبد القدوس.

حماد[5] عجرد

من الموالي، أصله ومنشؤه بالكوفة، كان أبوه نبالاً يبري النبل، ويظهر أنه وجهه إلى الدرس والتعلم مبكراً، ويقال إنه لقب بعجرد لأن أعرابياً مر به في يوم شديد البرد وهو عريان يلعب مع الصبيان، فقال له: تعجردت يا غلام أي تعريت فسمي عجرداً. وظل عاكفاً على التعلم

---

١ بيل: من نهيرات سواد العراس. سبى الخمر: حملها من بلد غلى بلد.

٢ يلحاك: يلومك ويشتمك

٣ يشير إلى رحيق الفردوس

٤ أغاني ١٥/ ٢٨٥ وما بعدها

٥ انظر في حماد وأخباره وأشعاره الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٤/ ٣٢١ وابن المعتز ص ٦٧ – ٧٢ وابن قتيبة ص ٧٥٤ ومعجم الأدباء ١٠/ ٢٤٩ وابن خلكان وتاريخ بغداد ٨/ ١٤٨ للجاحظ ٤/ ٤٤٧ وفى مواضع أخرى (انظر الفهرس) وأمالي المرتضي (طبعة الحلبي) ١/ ١٢٨ – ١٣٤. ولسان الميزان ٢/ ٣٤٩

والتأدب، حتى أتقن العربية وانتظم في سلك المعلمين المؤدبين، غير أنه مضى يفرغ للهو والمجون مع صاحبيه: حماد الرواية وحماد بن الزبرقان، يقول ابن المعتز: "كان بالكوفة ثلاثة يقال لهم الحمادون: حماد عجرد وحماد بن الزبرقان وحماد الرواية يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار ويتعاشرون أجمل عشرة، وكانوا كأنهم نفس واحدة، وكانوا جميعاً يرمون بالزندقة". فهو لم يكن ماجناً فحسب، بل أشربت روحه الزندقة كما أشربت المجون، وقد مر بنا في الفصل الرابع ما قاله أبو نواس من أنه كان يظن أن حمادا رُمي بالزندقة لعكوفه على المجون، حتى إذا حُبس في سجن الزنادقة وجدهم يقرءون في صلاتهم شعراً مزاوجاً له، فعرف أنه كان إماماً من أئمتهم. وعلى نحو ما كان يتواصل مع حماد الرواية وحماد بن الزبرقان كان يتواصل مع مجان موطنه المتزندقة من أمثال مطيع بن إياس ويحيى بان زياد. وهو يسلك في مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية، ويظهر أن مجونه قديم إذ يقال إنه كان من ندماء الوليد بن يزيد وأنه ظل إلى أن قتل سنة ١٢٦ للهجرة فعاد إلى موطنه، وأخذ يعيش معيشة مجون وفجر وفسق لا يرعوي ولا يزدجر، بل يصرح بذلك تصريحاً عارياً مكشوفاً، كما يصرح بزندقته مجاهراً، حتى ليقول فيه مساور الوراق:

لو أَن ماني وديْصانا وعُصْبتهم ... جاءوا إليك لما قلناك زنديقُ

أَنت العبادةُ والتوحيدُ مذ خُلقا ... وذا التزندقُ نَيْرنج مخاريقُ

فهو يفرق – في رأيه – ماني وديصان وأضرابهما من رءوس الزنادقة. ويعابثه صديقه حماد بن الزبرقان شاهدا عليه بزندقته ومجونه قائلاً:

نِعم الفتى لو كان يعرف قَدْره ... ويقيم وقتَ صلاته حَمَّادُ

هَدَلَتْ مشافرَه الدِّنانُ فأنفُه ... مثل القَدوم يسنُّها الحَدَّادُ

وابيضَّ من شرب المُدامة وجهه ... فبياضُه يوم الحساب سوادُ

وكأنما كان عريه في صباه ولقبه عجرد الذي لزمه إرهاصاً لما أخذ فيه بعد من الإباحة وطلب اللذات. وكان يطلبها في الحانات وفى الأديرة وفى البساتين، متغزلاً في الإماء والغلمان غزلاً مكشوفاً كان يتبادله مع مطيع بن إياس وغيره ممن كانوا يمعنون معه في المجون هازئين

بالإسلام ودعوته التي تحرم الإباحة واقتراف المنكرات، حتى لينحازوا إلى الزندقة التي تفتح لهم الأبواب إلى الفسوق والفجر الفاجر.

ويرتفع ما كان فيه من فسق ومجون إلى سمع المنصور، فيستخدمه أداة للنيل من محمد بن أخيه السفاح، حتى يسقط في أعين الرعية ويرتفع عندها ابنه المهدي، ذلك أنه كان قد اتصل به من قبل وأدبه، وترك فيه أثراً سيئاً، إذ جعله يميل إلى اللهو وشئ من المجون. ورأى المنصور أن يهتك ستر ابن أخيه فولاه البصرة بعد ثورة إبراهيم بن عبد الله بن الحسن وأصحبه حماداً فأكمل إغواءه له، وكشف للناس مجونه، وله فيه مدائح مختلفة من مثل قوله:

أَرجوك بعد أَبي العباس إذ بانا ... يا أَكرمَ الناسِ أَعْراقاً وأَغصانا

لو مَجَّ عودٌ على قومٍ عصارتَه ... لمجَّ عودك فينا المِسْكَ والبَانا

وحدث أن خطب محمد حين ولى البصرة ابنة عم أبيه زينب سليمان العباسي وكان يهواها، فلم يزوجوها له لنقص كانوا يرونه في عقله، ورأى أن يؤذيهم فطلب إلى حماد أن ينظم فيها غزلاً على لسانه، فنظم وأكثر مما أحفظ عليه أخاها محمد ابن سليمان وأهلها، ولم يلبث محمد أن توفي لأوائل سنة مائة وخمسين للهجرة، فبكاه حماد بكاء حاراً بمثل قوله:

صرتُ للدهر خاشعاً مستكيناً ... بعد ما كنت قد قهرتُ الدهورا

ليتني متُّ حين موتك، لا بل ... ليتني كنت قبلك المقبورا

ولم يجر عليه نزوله البصرة غضب محمد بن سليمان فحسب، بل لقد جر عليه أيضاً معركة هجاء حامية الوطيس نشبت بينه وبين بشار شاعر البصرة، ذلك أنه أفسد عليه بعض من كانوا يثيبونه، فهجاه والتحم بينهما الهجاء، وشغف بعض معاصريهما بالتحريش بينهما، فكان ينقل إلى كل منهما ما يقوله في صاحبه، فيثور ويحاول أن يقذفه بحجر مدم، وتكاثرت الأحجار، وكان بشار – مع زندقته – يكثر من هجائه بالزندقة، ورد عليه بنفس السهام وبسهام أخرى لم تكن أقل إيذاء، إذ كان يهجوه بعماه وقبح خلقته ودنسه وقذارته مهوناً منه أشد التهوين ومستخفاً به اشد الاستخفاف، وقد أنشدنا في الفصل الرابع أطرافاً من هذا الهجاء المُصمى، وأكثر جميعاً من

هجو الأمهات والزوجات. ومن المحقق أن حماداً كان يستعلي عليه في تلك المعركة، إذ كان يشيع في هجائه له سخرية مرة من مثل قوله:

إن تاه بشارٌ عليكم فقد ... أَمكنتُ بشارا من التيهِ

وذاك إذ سمَّيتُه باسمهِ ... ولم يكن حُرٌّ يسميِّه

لم أَهْجُ بشاراً ولكنني ... هجوتُ نفسي بهجائِيهِ

ونراه في بعض عبثه ولهوه مع مطيع بن إياس يلمزه بعض اللمز، ولكنهما لا يندفعان في الهجاء، فقد كانا صديقين متوادين. واتصلت صداقته مع يحيى ابن زياد، وكان مثله خليعاً ماجناً متهماً بالزندقة، ويقال إنه تاب وأناب بأخرة وهجا حماداً وأشباهه وإنه كان إذا ذكر عنده ثلبه وحكى تهتكه ومجونه، فكتب إليه حماد من قصيدة:

إن كان نُسكك لا يتـ ... ـمُّ بغير شَتْمي وانتقاصي

فعليك فاشتُمْ آمناً ... كلَّ الأَمان من القِصاصِ

فلطالما زكَّيتني ... وأَنا المقيمُ على المعاصي

أَيام أَنت إذا ذُكر ... تُ مناضلٌ عنى مُناصي[1]

وأَنا وأَنت على ارتكا ... ب الموبقات من الحِراصِ

وله معاتبات بديعة كثيرة لأصدقائه يتحدث فيها عن واجب الصديق للصديق حديثاً كله بر وعطف، على شاكلة قوله:

لقد حُزْتَ من قلبي مكاناً ممنَّعا ... أَرى لك فيه أَن أَريق لك الدَّما

سأَشرب كأْسيك اللتين سقيتني ... وإن كانتا والله صَاباً وعَلْقَما

وأُدْخل كفيِّ إثْر كفِّكَ في الذي ... عراك ولو أَدخلتَها ثُقْبَ أَرقما[2]

---

١ مناصي: مدافع

٢ الأرقم: الثعبان

وبلغه توعد محمد بن سليمان العباسي بعد وفاة محمد بن السفاح لما كان يردده من الغزل بلسان ابن عمه في أخته على نحو ما أسلفنا فمدحه أمداحاً مختلفة غير أن محمد بن سليمان ظل حنقاً عليه وجد في طلبه، فمضى إلى قبر أبيه سليمان بن على فاستجار به، وبلغ ذلك محمداً فقال: والله لأُبَلَّنَّ قبر أبي من دمه، فهرب حماد إلى بغداد فعاذ بجعفر بن المنصور، فأجاره، ويقال إنه طلب إلهي هجاء محمد بن سليمان وكان والياً على البصرة فلباه وهجاه هجاء مقذعاً بمثل قوله:

له حَزْمُ بُرْغُوث وعقل مكاتَبٍ ... وغُلْمَةُ سِنَّوْرٍ بلبلٍ تُوَلْوِلُ[1]

وبلغ هجاؤه ابن سليمان فأهدر دمه، ويقال بل قتله لزندقته، وقال: والله لا يفلتني أبداً، وعرف أنه استتر منه بالأهواز، فأرسل إليه بعض مواليه وأمره أن يفتك به، فلم يزل يطلبه حتى وقف عليه فقتله غيلة سنة ١٦١ للهجرة.

مطيع[2] بن إياس

كان أبوه إياس بن مسلم شاعراً، وكان من أهل فلسطين الذين أمد بهم عبد الملك بن مروان الحجاج بن يوسف في حروبه ضد الثوار، وقد أقام بالكوفة وتزوج بها فوُلد له مطيع، وبها كان منشؤه ومرباه. وقد نسبه أبو الفرج إلى كنانة، ثم عاد فتشكك في هذا النسب محسا أنه من صنع الرواة. وكل شئ فيه يؤكد أنه لم يكن عربياً إنما كان من الموالي، فقد كان متحلل الأخلاق مجاهراً بالفسق والعصيان والزندقة والإلحاد، ومضى في مطالع شبابه يمدح الغمر بن يزيد بن عبد الملك ويظفر بجوائزه السنية، ووصله بأخيه الوليد، فسلكه في ندمائه.

وعاد مع حماد عجرد بعد وفاة الوليد بن يزيد إلى الكوفة، وغرقا في اللهو والمجون والفسق والعصيان مع يحيى بن زياد وغيره من الخلعاء والمجان. واتصل بعبد الله ابن معاوية بن عبد الله

---

١ تولول: تعول

٢ انظر في مطيع وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٩٤ والأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣/ ٢٧٤ وتاريخه بغداد ١٣/ ٢٢٦ وعيون الأخيار ٢/ ١٨٢ وأمالي المرتضى (طبعة الحلبي) ١/ ١٤٢ والديارات للشابشتي ص ١٥٩ وما بعدها ولسان الميزان لابن حجر ٦/ ٥١.

بن جعفر بن أبي طالب ونادمه، ورافقه في ثورته على الأمويين حتى إذا قتل عاد غلى الكوفة يحتسي كئوس الخمر حتى الثمالة.

وليست هناك سوءة من سوءات العصر إلا وتضاف إليه. وكان فيه ظرف ودعابة، مما جعله محبباً إلى رفاقه، وله معهم نوادر كثيرة، من ذلك أن صديقه يحيى بن زياد قال له يوماً: انطلق بنا إلى فلانة المغنية صديقتي فإن بيني وبينها مغاضبة، لعلك تصلح بيننا فدخلا إليها، وأقبل يحيى يعاتبها ومطيع ساكت، حتى إذا أكثر يحيى قال لمطيع: ما يسكتك؟ فتوجه إليها مطيع قائلاً:

أَنت معْتَلَّةٌ عليه ومازا ... ل مُهيناً لنفسه في رضاكِ

فأعجب يحيى ما سمع، وهش له مطيع، ثم قال:

فدَعيه وواصلي ابنَ إياسٍ ... جُعِلَتْ نفسيَ الغداةَ فِداكِ

وأغربت الجارية في الضحك. وفى كتاب الأغاني أشعار له كثيرة كان يدعو بها رفاقه إلى اللهو والقصف في داره وفى البساتين والأديار. وغزله في الغلمان قليل، ولكن لا شك في أنه من أوائل من أشاعوا هذا الغزل المزري، وله غزل كثير في القيان الكوفيات وخاصة وفي جوهر، وفيها يقول:

أَنتِ يا جوهرُ عندي جَوْهره ... في قياس الدُّررِ المشتهره

أَو كشمسٍ أَشرقتْ في بيتها ... قَذفتْ في كل قلبٍ شَرَرَه

وفى أخباره أنه صاحب سلم بن قتيبة حين ولى مدينة الري للمنصور سنة ١٤٥ وهناك عشق امرأة من بنات الدهاقين كان نازلاً بجوار دارها، ولم يلبث المنصور أن استدعى سلما في نفس السنة، فاضطر مطيع إلى الرحيل معه، وألم في طريقه بمدينة حلوان وجلس يستريح بجوار نخلتين وتذكر معشوقته، فخنقته العبرات وقال أبياته المشهورة التي أنشدناها في الفصل الرابع والتي يخاطب فيها نخلتي حلوان خطاباً مؤثراً شاكياً لهما فراقه الأحباء والخلان.

ومن الأجواد الذين فزع إليهم في تلك الفترة يستميحهم بمدائحه معن بن زائدة الشيباني، ويروى أنه لما أنشده مدحته التي يقول فيها مصوراً كرمه وبأسه وحلمه وحصافته:

فتى نزارٍ وكهلُها وأَخو الـ ـجود حَوَى غايتيه من كَثَبِ

ترى له الحلم والنُّهَى خلقا في صولةٍ مثل جاحم اللَّهَبِ

قال له معن مداعباً: إن شئت مدحناك كما مدحتنا، وإن شئت أثبناك، فاستحى مطيع من إيثار الثواب على المديح، وهو محتاج إلى الثواب، فأنشأ يقول بديهة:

ثناءٌ من أَميرٍ خَيْرُ كَسْبٍ لصاحبِ فاقةٍ وأَخي ثراءِ

ولكن الزمان بَرى عِظامي وما مثلُ الدراهم من دواءِ

فقال معن: لقد لطفت حتى تخلصت، وصدقت لعمري ما مثل الدراهم من دواء، وأمر له بثلاثين ألف درهم وخلعة سنية.

وجذبته بغداد على نحو ما جذبت غيره من الشعراء، فولى وجهه نحوها، وربما كان من أسباب ذلك خروج رفيقيه حماد عجرد ويحيى بن زياد إلى محمد ابن العباس السفاح بالبصرة، ويظهر أن الدواء الذي وصفه له معن بن زائدة عز عليه في أول مقامه ببغداد، مما جعله يقول:

زاد هذا الزمانُ عسراً وشرًّاً عندنا إذ أَحلَّنا بغداذا

بلدةٌ تمطر الترابَ على النا س كما تمطر السماءُ الرَّذاذا

ولم يلبث ظرفه أن فتح له أبواب القصر العباسي، فتحها له جعفر بن المنصور. وكان فيه خبث، فانتهز فرصة إعلان المنصور بيعته لابنه المهدي بولاية العهد من بعده، وتقدم عقب فراغ الخطباء والشعراء من إشادتهم بالمهدي، فروى حديثاً مصنوعاً لتوه زاعماً أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "المهدي منا محمد بن عبد الله وأمه من غيرنا، يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً". وسر من صنيعه المنصور، وحفظ ذلك له المهدي. ويقال إنه ارتفع إلى المنصور أنه ماجن زنديق فهم بإنزال عقاب صارم به غير أن ابنه المهدي تشفع فيه فعفا عنه، وبذل له المهدي مائتي دينار، وأوصى به والي البصرة فولاه أعمال الصدقات. وربما كانت هذه الولاية غير صحيحة، ولكن من المؤكد أن المهدي ظل راضياً عنه، ولعل هذا الرضا هو الذي جعله يفلت من عقابه حين شدد في تعقب الزنادقة سنة ١٦٦ للهجرة وأطاح برءوس كثيرين منهم. ومما يؤكد زندقته ما

يقال من أن الرشيد أتى ببنت له في الزنادقة، فأقرت بزندقتها وتوبتها قائلة: هذا دين علمنيه أبي وتبت منه. فقبل الرشيد توبتها وردها إلى أهلها.

ومضى مطيع يعيش لعهد المهدي منهمكاً في المجون والخلاعة والشراب والانطراح في مواضع اللذات، ونظم في تلك الحياة الفاجرة كثيراً من الشعار يصف فيها الخمر أو يتغزل ببعض القيان. وله بجانب ذلك معاتبات لرفاقه تفيض حناناً وعطفاً وبراً، وخاصة مع صديقه يحيى بن زياد، ويقول ابن المعتز: "كان لا يفارقه ليلاً ولا نهاراً، ويرى كل واحد منهما بصاحبه الدنيا مودة ومحبة". وحدث أن تهاجرا ولم يطق مطيع الصبر على هجره فكتب إليه يعاتبه ويستعطفه مصوراً ما كان منعقداً بينهما من ود متصل بمثل قوله:

كنت ويحيى كَبَدَيْ واحدٍ ... نَرْمي جميعاً وتَرَيْنَا معهاً

إن عضَّني الدهرُ فقد عضَّه ... يوجعنا ما بَعْضَهَا أَوجعا

أَو نام نامتْ أعينٌ أربعٌ ... منا وإن أَسْهَرْ فلن يَهْجَعا

حتى إذا ما الشيبُ في مَفْرِقي ... لاح وفي عارضه أَسرعا

سَعَى وُشاةٌ فمشوا بيننا ... فكاد حَبْل الوُدِّ أَن يُقْطَعَا

حتى إذا استمكن من عَثْرَةٍ ... أَوْقَدَ نيرانَ القِلِيَ مُسْرِعا

فلم أَلُمْ يحيى على فعلهِ ... ولم أَقل مَلَّ ولا ضيعَّا

وهو عتاب يدل على حس مرهف دقيق. وسرعان ما عاد بينهما الصفاء ومضيا يعبان من دنان اللهو والمجون حتى كف يحيى بأخرة فيما يقال. ولم يلبث أن توفى فبكاه مطيع بكاء حاراً، ومن قوله يرثيه ويتفجع عليه:

يا أَهليَ ابْكُوا لقلبيَ القَرِحِ ... وللدُّموع السواكب السُّفُحِ[1]

راحوا بيحيى ولو تطاوعني الْـ ... أَقْدَارُ لم يبتكر ولم يَرُحِ[2]

---

١ السواكب السفح: المنهمرة

٢ يبتكر: من البكور. ويرح: من الرواح وهو وقت العشي

يا خير مَنْ يحسن البكاء له الـ ـيوم ومن كان أَمِس للمِدَح

قد ظفِرَ الحُزْنُ بالسرور وقد أُديل مكروهنا من الفرح[1]

وواضح أن مطيعا كان يتقن جميع الفنون الشعرية وأنه يمتاز في أشعاره بالسلاسة والعذوبة. ولعل ذلك ما جعله يميل في كثير من نظمه إلى وزن المجتث والأوزان المجزوءة. وكأنما كان يريد أن يوفر لأشعاره كل ما يمكن من خفة ورقة ورشاقة، حتى تجرى على أفواه الناس، وحتى تلذ آذانهم، ويقول صاحب الأغاني إن حكما الوادي المغني تغنى في قطعة له، فلم يبق سقاء ولا طحان ولا مكار إلا غنى فيها. وقد ظل مطيع سادراً في غيه ومجونه حتى توفي سنة ١٦٩ وقيل بل في سنة ١٧٠ للهجرة لأول خلافة الرشيد.

صالح[2] بن عبد القدوس

بصري من موالي الأزد، وأكبر الظن أنه فارسي الأصل، وكان في صدر نشأته يختلف إلى حلقات الوعاظ والمتكلمين ولم يلبث عقله أن تشوش بما كان يسمع في تلك الحلقات من مناقشات أصحاب الملل والنحل، فإذا هو يعتنق الثنوية المانوية مذهب آبائه ونحلتهم، وما كانت تقول به من أن العالم نشأ عن أصلين هما النور والظلمة، ولكل منهما إلهه الخاص، وأن مصدر بلاء العالم امتزاج هذين العنصرين، ومن أجل ذلك دعت إلى الزهد في الحياة ونعيمها الزائل. ونراه في عصر بني أمية يكثر من الاجتماع بواصل بن عطاء رأس المعتزلة، مشاركاً فيما كان يدور في مجلسه من مخاصمات كلامية ودينية[3]، ونظن ظناً أنه لم يظهر حقيقة عقيدته حينئذ،

---

١ أديل: أصبحت له دولة موصولة

٢ انظر في صالح وأخباره وأشعاره أمالي المرتضي (طبعة الحلبي) ١/ ١٤٤ وما بعدها وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٩٠ ورسالة الغفران (طبعة أمين هندية) ص ١٤٢ وتاريخ بغداد ٩/ ٣٠٣ ومعجم الأدباء لياقوت ١٢/ ٦ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٦/ ٣٧١ وفوات الوفيات ١/ ١٩١ ونكمت الهميان للصفدي ص ٧١، ١٧١ ولسان الميزان لابن حجر ٣/ ١٧٢ وفهارس كتابي البيان والتبيين والحيوان للجاحظ، وسرح العيون لابن نباتة (طبعة دار الفكر العربي) ص ٢٢٧.

٣ أغاني (طبعة دار الكتب) ٣/ ١٤٦

وإلا لهتف به واصل، كما هتف ببشار طالباً من أصحابه قتله[1]، وفى بعض شعره أنه كان يستر نحلته خشية الحبس والعقاب والتنكيل به، يقول:

رُبَّ سِرٍّ كتمتُه فكأَني ... أخْرَسٌ أو ثني لسانيَ خَبْلُ

ولو آني أَبديت للناس علمي ... لم يكن لي في غير حَبْسِيَ أَكْلُ

وتوفي واصل سنة ١٣١ للهجرة، ولم تلبث الثورة العباسية أن اندلعت تسندها حراب الفرس والخراسانيين وسرعان ما انتصرت فأحس صالح كأن الحياة واتته، وأخذ يعلن عقيدته ويجاهر بها حيناً، وحيناً يسترها حين يخاف بعض الحكام، حتى ليصلي صلاة المسلمين حين تحين الصلاة، ويعجب من صلاته بعض من يعرف مذهبه، ويسأله في ذلك متعجباً، فيقول: "سنة البلد وعادة الجسد وسلامة الأهل والولد". ونمضي في العصر العباسي ويكثر الزنادقة والمتزندقون، على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع، ويعلن صالح زندقته ولا يواريها، أو بعبارة أدق يعلن مانويته وثنويته، حتى ليؤلف – كما يقول ابن النديم – كتباً في نصرة عقيدته[2]. وتبلغ به الجرأة أن يحاضر ويجادل فيها بمسجد البصرة، ويتعرض له غير متكلم من المعتزلة وغيرهم وخاصة أبا هذيل العلاف، ويروى أن ناظره في الامتزاج الذي يدعيه المانوية بين النور والظلمة في الجوهر والطبع والفعل والمكان والأبدان والأرواح، وأنه أفحمه وقطعه، فقال:

أَبا الهُذَيْلِ هداك الله يا رجلُ ... فأَنت حقًّا لعمري مُعْضِلٌ جَدِلُ

وناظره أبو الهذيل مرة أخرى في أصل عقيدته وما يؤمن به من إلهي النور والظلمة، وبدا منه كأنه يهجر ضلاله وغيه، فسأله أبو الهذيل: على أي شئ تعزم يا صالح؟ فقال: أستخير الله وأقول بالاثنين. وكأن المسألة تحولت عنده من الأخذ بالمنطق إلى باب الهوى وتقليد الآباء، ويظهر أن ذلك أفضى عنده إلى شكوك واسعة لا في الديانات فحسب، بل في حقيقة كل شئ، ولعله أطلع على مباحث السوفسطائيين اليونانيين وما آمنوا به من أن الأشياء لا حقيقة لها في نفسها، ويدل على ذلك ما يقال من أنه ألف كتاباً سماه كتاب الشكوك، ويروى أنه مات له ولد،

---

١ انظر البيان والتبيين ١/ ١٦

٢ الفهرست ص ٤٧٣

فلقيه أبو الهذيل العلاف ومعه النظام، فوجده جزعاً على ابنه، فقال له: لا أعرف لجزعك وجهاً إذ كان النسا عندك كالزرع! فقال صالح: يا أبا الهذيل إنما أجزع عليه لأنه لم يقرأ كتاب الشكوك، فقال أبو الهذيل: وما كتاب الشكوك؟ قال: كتاب وضعته، من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن وفيما لم يكن حتى يظن أنه قد كان، فقال له النظام: فشك أنت في موت ابنك واعمل على أنه لم يمت وإن مات، وشك أيضاً في أنه قرأ هذا الكتاب وإن لم يكن قرأه، فحصر صالح. وفى أشعاره ما يدل على أنه عمى في آخر عمره، إذ يقول:

عزاءَكِ أَيها العَيْنُ السَّكوبُ ... ودَمْعَكِ إِنها نُوَبٌ تنوبُ

على الدُّنيا السلامُ فما لشيخٍ ... ضرير العين في الدُّنْيا نصيبُ

إذا ما مات بَعْضُكَ فابْكِ بَعْضاً ... فإِن البعض من بعضٍ قريبُ

وتدخل سنة ١٦٦ للهجرة ويشدد المهدي في تعقب الزنادقة وينصب لهم ديواناً لمحاكمتهم ومن تثبت عليه الزندقة يصلب لتوه، حينئذ يفر صالح من البصرة إلى دمشق ويظل مستتراً بها مدة، ثم يقبض عليه ويلقي به في غياهب السجون ببغداد انتظاراً لمحاكمته، ويصور مشاعره وهو في السجن تصويراً دقيقاً بمثل قوله:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلسنا من الأَحياءِ فيه ولا الموتى

طَوى دوننا الأَخبارَ سِجْنٌ ممَنَّعٌ ... له حارسٌ تَهْدا العيون ولا يَهْدَا

قُبرْنا ولم نُدْفَنْ فنحن بمعزلٍ ... من الناس لا نُخْشَى فنُغْشَى ولا نَغْشَى

ألا أَحدُ يأْوى لأَهل مَحِلَّةٍ ... مقيمين في الدنيا وقد فارقوا الدنيا

كأَنهمُ لم يعرفوا غير دارهمْ ... ولم يعرفوا غير التضايق والَبْلَوى

ويختلف الرواة في زمن هذه المحاكمة والخليفة الذي تولاها، فمن قائل إنه المهدي ومن قائل إنه هرون الرشيد، وقد ضعف ابن المعتز القول الأول، وقال الصحيح أن الذي حاكمه وناظره في زندقته الرشيد، وكان قد أنهى إليه أبيات يهجو بها الرسول - كبرت كلمة تخرج من فمه -

لزواجه من زينب بنت جحش بعد فراق مولاه زيد لها[1] وهي طعن صريح في الرسول الكريم والذكر الحكيم، ولابد أنه أنهى إليه كل شئ عن زندقته وإثنينيته ومانويته، فأمر بالقبض عليه، وزج به في السجن، ثم عقد له يوم المحاكمة، وتولى الرشيد المحاكمة بنفسه، غير أنه حاول التبرؤ من كل ما نسب إليه، ويقال إنه ظل يستعطف الرشيد طويلاً حتى رق له، ولكنه لم يلبث أن استنشده سينيته التي يقول فيها:

لا يبلغ الأَعداءُ من جاهلٍ ... ما يبلغ الجاهلُ من نفسهِ

والشيخُ لا يترك أَخلاقه ... حتى يُوارَى في ثَرَى رَمْسِهِ[2]

إذا ارعوى عاد إلى جهلهِ ... كذي الضَّنَا عاد إلى نُكْسه[3]

وإِن من أَدَّبْته في الصِّبا ... كالعود يُسْقَى الماء في غَرْسِهِ

حتى تراه مورِقاً ناضرا ... من بعدما أَبصرتَ من يُبْسِهِ

فتلا عليه الرشيد البيت الثاني، وقال له: نحن نتمثل وصيتك وما شهدت به على نفسك نم أنك لا تترك الزندقة ولا تحول عنها أبداً، وأمر فضربت عنقه وصلب على الجسر ببغداد عقاباً له وتنكيلاً.

وكثير من أشعاره يدور على التنفير من الدنيا ومتاعها الزائل وذكر الموت والفناء، والحث على مكارم الأخلاق وطاعة الله، ولعله يريد إله النور والخير، وقد جعل شيوع ذلك في أشعاره ابن المعتز يشك فيما نسب إليه من الزندقة، مستشهداً بقوله:

وليس بعجزِ المر إخطاؤه الغِنى ... ولا باحتيالٍ أَدرك المالَ كاسبُهْ

ولكنه قبْضُ الإله وبَسْطه ... فلا ذا يجاريه ولا ذا يغالبه

---

١ ابن المعتز ص ٩٠

٢ الرمس: القبر

٣ الضنا هنا: المرض، والتنكس: الانعكاس أي رجوع الناقة إلى مرضه.

يقول ابن المعتز: "فيا عجباً كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول؟ وكيف يكون قائله زنديقاً؟. وكأنما أحس أنه يصدر في البيت الثاني عما جاء في الذكر الحكيم مراراً من أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر أي يضيقه ويجعله يقدر قليل. ونراه يتمثل في شعره أحياناً بعض الأحاديث كقوله:

والله في عَرْض السموات جَنَّةٌ ... ولكنها محفوفةٌ بالمكارهِ

والشطر الأول واضح الصلة بقوله تبارك وتعالى: (جنة عرضها السموات والأرض) أما الشطر الثاني فواضح الصلة بقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات". واستمداد ابن عبد القدوس أحياناً من الحديث النبوي أو القرآن أو من بعض وعاظ المسلمين مثل الحسن البصري لا يخرجه من دائرة الزنادقة المانويين، فقد كان يصنع صنيعه أبو العتاهية كما مر بنا في ترجمته، وزندقته عند ابن المعتز لا يشوبها ريب. أما دعوة ابن عبد القدوس إلى الزهد في الدنيا الفانية فهي دعوة كان يلتقي فيها المانوية بزهد الإسلام على نحو ما صورنا ذلك في حديثنا عنهم وعن أبي العتاهية في غير هذا الموضع، مما جعل بعض القدماء يتشككون في زندقة أبي العتاهية على نحو ما يتشكك ابن المعتز الآن في زندقة ابن عبد القدوس. ومما لا شك فيه أنه كان زنديقاً مانوياً كبيراً، بل لقد كان رأس المانوية والمجادل عن عقيدتهم في البصرة حقباً متطاولة.

ويكاد يذهب شعر ابن عبد القدوس كله في تقرير محاسن الأخلاق والشيم، ناظراً فيها نظرة تجريدية، وهى نظرة دفعته إلى تعقب حكمة العرب والعجم، حتى قالوا إن في ديوانه ألف مثل للعرب وألف مل للعجم[1]، وكأنه رصد نفسه لنظم الشعر في الفضائل وتجارب الأفراد والأمم، ومن خير ما يمثل ذلك عنده قصيدته الزينبية التي تغزل في مطلعها فيمن تسمى زينب، ثم استرسل يسوق الحكم من مثل قوله:

أحذَرْ مصاحبةَ اللئيم فإنه ... يُعْدِي كما يعدي الصحيحَ الأجربُ

يلقاك يحلف أَنه لك واثقٌ ... وإذا تَوارى عنك فهْو العَقْرَبُ

---

١ التحفة البهية ص ٢١٧

يعطيك من طَرف اللسان حلاوةً ... ويَروغُ منك كما يروغُ الثَّعْلَبُ

واختر قرينك واصطفيه تفاخراً ... إن القَرين إلى المقارن يُنْسَبُ

واحفظْ لسانك واحترسْ من لفظهِ ... فالمرء يسلم باللسان ويَعْطَبُ

والسِّرَّ فاكتُمْه ولا تنطقْ بهِ ... إن الزُّجاجة كَسْرُها لا يُشْعَبُ[1]

ومن نمط هذه القصيدة الحكمية قصيدة له قافية استوعب فيها كثيراً من النصائح الخلقية التهذيبية، وفيها يقول:

المرءُ يجمع الزمانُ يفرِّقُ ... ويظل يَرْقَعُ والخطوبُ تمزِّقُ

ولأَنْ يعادىَ عاقلاً خيرٌ له ... من أَن يكون له صديقٌ أَحمق

فأرْبَأْ بنفسك أَن تصادق أَحمقاً ... إن الصديق على الصديق مصدَّق

وزنِ الكلام إذا نطقتَ فإنما ... يُبْدِى عقولَ ذوي العقول المنطقُ

وعلى هذه الشاكلة تجري أشعاره في صورة تقريرية خالية من العاطفة وقلما شفعت بخيال أو تصوير، ولعل ذلك ما جعل شعره يسقط من أيدي الأجيال التالية، إلا قليلاً، وتنبه لذلك الجاحظ، فقال لو أن حكمه كانت مفرقة بين قصائد مختلفة لسارت في الآفاق "ولكن القصيدة إذا كانت كلها أمثالاً لم تسر ولم تجر مجرى النوادر، ومتى لم يخرج السامع من شئ إلى شئ لم يكن لذلك عنده موقع[2] ". على أن كتب الأدب ظلت تحتفظ ببعض أبياته الحكمية وظلت تدور فيها من مثل قوله في العزاء:

إن يكن ما به أُصِيْبتَ جَليلاً ... فلفقدُ العزاء فيه أَجَلُّ

وقوله:

إذا لم تستطع شيئاً فَدَعْهُ ... وجاوِزْهُ إلى ما تستطيعُ

---

١ يشعب: يصبح

٢ البيان والتبيين ١/ ٢٠٦

وقوله:

وترضى عِرْسَك بعدما هَرِمَتْ ومن العَناء رياضةُ الهَرِم[1]

وواضح فيما أنشدناه من أشعاره أنه كان يعنى باللفظ الجزل الرصين والبناء القوي المحكم، كما كان يعنى بالتدليل والتعليل ودقة القياس.

١ العرس: الزوجة

٣

شعراء الزهد

هذه الصفحة التي صورناها من شعر المجون والزندقة كانت تقابلها صفحة رائعة من شعر الزهد، فقد كانت المساجد مكتظة بالوعاظ والنساك وأهل الحديث والفقه والورع، ومن حولهم العامة، وقد صدقت كثرتهم ربها مخافة وعيده، مؤمنة بأن القيامة موعده وموقفها مع ذي الجلال وأن العمر وإن طال قصر وأن الدنيا ينبغي أن تكون دار زاد لدار المعاد. وما ينبي الوعاظ والنساك من المحدثين يزجرونهم عن التعلق بمتاعها الزائل واضعين نصب أعينهم الموت وتبعات الحياة الموبقة وأن العاقل من عرف أن الناس سفر وعما قليل راحلون فإما عذاب مستديم وإما نعيم مقيم، فأسرع يغتنم بقية أجله بخير عمله مقدماً كل ما يستطيع من الباقيات الصالحات.

ويبدو أن كثيرين من القصاص والوعاظ كانوا ما يزالون ينشدون في وعظهم وقصصهم أبياتاً وأشعاراً كثيرة منها ما يروونه عن القدماء ممن سبقوهم، ومنها ما ينشئونه إنشاء، فمن ذلك ما يروى عن صالح المري القاص العابد من أنه كان كثيراً ما ينشد في قصصه ومواعظه:

فبات يرَوِّي أَصولَ الفَسيل ... فعاش الفسيلُ ومات الرَّجُلْ[1]

وكان مالك بن دينار المحدث الناسك لا يزال يتحدث في مجالسه عن الموت، حتى لتكاد تخنقه العبرات، وله أشعار مختلفة يتحدث فيها عن القبور وأهلها وأنه أجل محدود ونفس معدود، وعما قليل يصبح الإنسان تراباً في تراب، كمن سبقوه، فأولى له أن يتعظ ويعتبر، يقول[2]:

أَتيت القبورَ فناديتهـ ... ـنَّ أَين المعظَّم والمحتقَرْ

---

١ البيان والتبيين ١/ ١١٩ والفسيل: صغار النخل

٢ عيون الأخبار ٢/ ٣٠٢

وأَين المدِلُّ بسلطانهِ	وأَين المزكّي إِذا ما افتخر
تفانوا جميعًا فما مخبرٌ	وماتوا جميعاً ومات الخَبَرْ
تروح وتغدو بناتُ الثَّرَى	فتمحو محاسنَ تلك الصُّوَرْ
فيا سائلي عن أُناسٍ مضوا	أَمالك فيما ترى مُعْتَبَرْ

وممن كان يكثر من إنشاد الشعر في مواعظه سفيان بن عُيَيْنة وسفيان الثورة وكأن الوعاظ بذلك قدموا مادة واسعة لمعاصريهم من الشعراء كي يصوغوا على نمطها مواعظ تذكى الزهد والعمل الصالح في نفوس الناس، وقد أقبل كثيرون ينظمون دقائق الزهد، حتى بين المجان حين كانوا يثوبون إلى أنفسهم على نحو ما مر بنا عند أبي نواس، وكما يلقانا عند محمد بن يسير، وكان ماجناً هجاء خبيثاً، فقد ألم يوماً بمجلس أبي محمد الزاهد صاحب الفضيل بنت عياض، فأنشد[1]:

وَيْلٌ لمن لم يرحم الله	ومن تكون النارُ مَثْوَاهُ
واغَفْلَتَا في كل يومٍ مضى	يُذْكرني الموتَ وأَنساه
من طال في الدنيا به عُمْرُهُ	وعاش فالموت قُصاراه
كأَنه قد قيل في مجلسٍ	قد كنت آتيةٍ وأَغشاه
محمدٌ صار إلى ربِّهِ	يرحمنا الله وإياه

وكان من الشعراء الخلعاء المجان من يقلع إقلاعاً عن غيه، فيكثر من أشعار الزهد مكفراً بها عما قدمت يداه من مجون وخلاعة، ومن خير من يمثل ذلك محمد ابن حازم، وكان ينغمس في اللهو والمجون، حتى إذا بلغ الخمسين من سنه آلى على نفسه أن لا يشرب كأساً ولا يسير في طريق غواية، وأخذ يكثر من شعر الزهد حاضاً على القناعة وقطع الأسباب المتصلة بالقلوب من متاع الدنيا الفاني بمثل قوله[2]:

---

١ الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٤/ ٣٩

٢ انظر في هذين البيتين وتاليهما العقد الفريد ٣/ ٢٠٧

ومنتظرٍ للموت في كل ساعةٍ ... يَشيد ويبني دائماً ويحصِّنُ

حين تبلوه حقيقةُ موقنٍ ... وأَفعاله أفعالُ من ليس يوقن

وقوله الذي مر بنا في الفصل الرابع:

اضرَعْ إلى الله لا تَضْرَع إلى الناسِ ... واقْنَعْ بِيَأْسٍ فإن العِزَّ في الياسِ

واسْتَغْنِ عن كل ذي قُرْبى وذي رحمٍ ... إن الغنىَّ من استغنى عن الناسِ

وكثيرون كانوا يأخذون أنفسهم بحياة زاهدة حقيقية، فهم لا يقفون على أبواب الخليفة ولا أبواب الوزراء والأمراء والقواد، بل يكتفون من العيش بالكفاف، وإن عرضت عليهم وظيفة وأبوها حرصاً على دينهم ورفضاً لدنياهم، وممن اشتهروا في هذا الباب الخليل بن أحمد واضع النحو والعروض، وله في الزهد والعظة أبيات كثيرة من مثل قوله [1]:

عِشْ ما بدالك، قَصْرُك الموتُ ... لا مهرب منه ولا فوت

بَيْنَا غِنَى بيتٍ وبَهْجَتُه ... زال الغِنَى وتقوَّض البَيْتُ

واشتهر بأنه كان يأبى أن يصحب الخلفاء والحكام وذوي الجاه لما في أيديهم من الدنيا، ويروى أن سليمان بن قبيصة بن يزيد بن المهلب، وكان والياً على السند وجه إليه يستزيره فكتب إليه[2]:

أَبْلِغْ سليمان أَني عنه في دعَة ... وفي غِنًى غير أَني لست ذا مالِ

سَخَّي بنفسيَ أني لا أَرى أحداً ... يموت هَزْلاً ولا يبقى على حالِ

الرِّزْق عن قَدَرٍ، لا الضعفُ ينقصه ... ولا يزيدك فيه حَوْلُ محتالِ

والفقرُ في النفس لا في المال تعرفه ... ومثلُ ذاك الغِنَى في النفس لا المالِ

---

١ البيان والتبيين ٣/ ١٨٣

٢ إنباه الرواة ١/ ٣٤٤

وفى كل مكان يلقانا كثيرون يفرغون للنسك والتبتل والعبادة، مما دفع لظهور مقدمات التصوف في هذا العصر أو بعبارة أخرى إلى ظهور الحب الإلهي الذي يتجرد عن كل مادة وحس والذي يستغرق فيه المتصوفة مشغوفين بالحقيقة الإلهية، وما ترسله على الكون من أضواء الحق والخير والجمال المطلق، ومن أروع ما يصور ذلك أبيات رابعة العدوية المشهورة[1]:

أحبُّك حُبَّيْن: حُبَّ الهوى ... وحُبًّا لأَنك أهلٌ لذاكا

فأَما الذي هو حبُّ الهوى ... فشُغْلي بذكرك عمن سواكا

وأَما الذي أَنت أَهلُ له ... فكَشْفُك لي الحُجبَ حتى أَراكا

فلا الحمدُ في ذا ولا ذاك لي ... ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

وهى تميز بين حبين: حب الله شكراً لإنعامه المتواصل على الإنسان في دنياه، وحبه لجماله وجلاله القدسي الذي رفعت الحجب والستار بينها وبينه، وهو الحب الصوفي المجرد الذي يفنى فيه المتصوفة فناء يحقق لهم السعادة. ومن المحقق أن التصوف لا يزدهر في هذا العصر، إنما يزدهر الزهد، ومن أجل ذلك نقف عند ثلاثة من كبار الزهاد، لتتضح لنا المعاني التي كانوا يرددونها في أشعارهم، وهم عبد الله بن المبارك ومحمد بن كناسة محمود الوراق.

عبد الله[2] بن المبارك

هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح التميمي ولاءً، التركي المروزي أباً، الخوارزمي أماً، ولد سنة ثماني عشرة ومائة للهجرة، ورحل في طلب الحديث والعلم سنة إحدى وأربعين ومائة، فلقي المحدثين، وروى عن جماعة كثيرة وروى عنه خلائق لا تحصى، وهو يعد من كبار الحفاظ في عصره وأحد من كانت تشد إليه الرحال للنهل من معين علمه وفضله،

---

١ قوت القلوب للمكي ٣/ ٨٤ وإحياء علوم الدين للغزالي ٤/ ٢٦٧

٢ أنظر في ترجمة ابن المبارك وأشعاره الأنساب للسمعاني ١٧٩ وتاريخ بغداد برقم ٥٣٠٦ وصفة الصفوة ٤/ ١٠٩ وتذكرة الحفاظ الذهبي (طبع حيدر أباد) ١/ ٣٥٤ والتهذيب لابن حجر ٥/ ٣٨٤ والنجوم الزاهرة ٢/ ١٠٣ وكتاب الورقة لان الجراح ص ١٤ وحلية الأولياء لأبى نعيم ٨/ ٢٧٩ ومختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (طبعة الموسوعات) ص ٨٥.

وكان يجمع بين حفظ الحديث والفقه على مذهب أبي حنيفة والأدب والنحو واللغة والشعر والفصاحة. واشتهر شهرة مدوية بنسكه وزهده، حتى قال سفيان الثوري: "لو جهدت جهدي أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما عليه ابن المبارك لم أقدر" للروم يجاهد في سبيل الله من جهة، ومن جهة ثانية يعظ الجنود ويحمسهم للقتال ويلقي على الناس الحديث في الثغور من مثل طرسوس. وهو بذلك يصحح فكرة شاعت عن زهاد المسلمين وعبادهم هي أنهم كانوا سلبيين لا يشاركون في الواجبات الوطنية وهي إحدى الأفكار التي أشاعها المستشرقون ظانين أن زهد المسلمين كان يفصلهم عن الحياة على شاكلة زهد الديانة المسيحية وما ارتبط بها من رهبانية، وهو ظن واهم فإن زهاد المسلمين – وخاصة الأولين – لم ينفصلوا عن الحياة بل كانوا يتصلون بها، ليكسبوا قوتهم، ويعيشوا من كسبهم، لا مما يلقى إليهم من فتات الموائد، ولذلك كنا نجدهم يتجرون ويحترفون حرفاً كثيرة على نحو ما سنرى عند محمود الوراق فإنه كان يحترف النخاسة وبيع الجواري والإماء، وكان عبد الله بن المبارك يتجر ليكسب معاشه. وكانوا يلبون دائماً نداء الوطن ويتقدمون الصفوف المجاهدة طلباً للاستشهاد في سبيل الله. وكانوا يعدون هذا الجهاد أروع وأعظم عند الله من نسك النساك، ويقدم لنا ابن المبارك نفسه وثيقة طريفة توضح ذلك أتم توضيح، فقد روى الرواة أنه أملى وهو بطرسوس رسالة شعرية وجه فبها إلى الفضيل ابن عياض الناسك المشهور في سنة سبع وسبعين ومائة، وكان مجاوراً بمكة:

يا عابدَ الحَرَمَيْنِ لو أَبصرتنا ... لعلمتَ أَنك في العبادة تلعبُ

مَنْ كان يَخْضِبُ جِيدَه بدموعِهِ ... فنُحورُنا بدمائنا تتخضَّبُ

أَو كان يُتْعب خَيْله في باطلٍ ... فخيولُنا يوم الصَّبيحة تَتْعَبُ

رِيحُ العِبيرِ لكم ونحن عَبيرُنا ... وَهَجُ السَّنابكِ والغبارُ الأَطيبُ

ولقد أَتانا من مقال نبيِّنا ... قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يُكْذَبُ

لا تستوي أَغْبارُ خَيْل الله في ... أَنْفِ امرىءٍ ودخان نارٍ تَلْهَبُ[1]

---

١ الأغبار: جمع غبرة، وهى الغبار

هذا كتاب الله ينطق بيننا ليس الشهيد بمَيِّتٍ لا يَكْذِبُ

وواضح أن ابن المبارك يرفع الجهاد فوق العبادة درجات، حتى ليدعوها بالقياس إليه ضرباً من اللعب. وهو يصور الهوة التي تفصل بينهما، فالناسك يقدم لربه دموعه والمجاهد يقدم دماءه، متخذاً الخيل العاديات لا في لهو وإنما في التضحية والاستشهاد طلباً لرضوان الله، متطيباً بطيب أكثر شذي وعطراً من الطيب الحقيقي، طيب غبار الحرب وسنابك الخيل وهي تقدح الأرض قدحاً، ويقول إن الإسلام أعلى الجهاد على النسك والعبادة مشيراً إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً" كما يشير إلى ما جاء في الذكر الحكيم من أن شهيد الجهاد لا يموت، بل يظل حياً عند ربه حياة خالدة: (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين) وفى موضع آخر من التنزيل: (ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون). وهى ميزة خص بها الله سبحانه المستشهدين في سبيله دون سائر المؤمنين من نساك وغير نساك، إذ جعلهم يحيون في قبورهم حياة برزخية خاصة لا يعلم حقيقتها سواه.

ولابن المبارك موقف ثان يصور كيف كان الزهاد من العلماء والمحدثين يتعففون في مثل هذا العصر عن الوظائف ومناصب الدولة خوفاً على أنفسهم من أن تغرهم الدنيا فينحرفوا عن الجادة، فقد ذكروا أن أحد أصحابه وهو إسماعيل بن علية ولي الصدقات بالبصرة، فكتب إليه يذكر ذلك ويقول له: أحب أن تبعث إلى إخواننا من القراء لنشغلهم، فأجابه: القراء ضربان: قوم طلبوا هذا الأمر (أي قراءة القرآن) لله فأولئك لا حاجة لهم في لقائك، وقوم طلبوه للدنيا فأولئك أضر على الناس من الشرط، وألحق بجوابه هذه الأبيات:

يا جاعلَ الدينِ له بَازِيًا يصطاد أَموال المساكين

احتلتَ للدنيا ولذَّاتها بحيلةٍ تذهبُ بالدين

وصرت مجنوناً بها بعدما كنت دواءً للمجانين

أَين رواياتُك فيما مضى عن ابن عَوْنٍ وابن سِيرينِ

أَين روايتك في سَرْدها في ترك أَبواب السَّلاطين

إن قلتَ أُكْرِهتُ فذا باطلٌ زلَّ حِمَارُ العلم في الطِّين

وكان كثيراً ما يستشهد بقول المسيح عليه السلام، "كما ترك لكم الملوك الحكمة فاتركوا لهم الدنيا" ونظم ذلك شعراً قائلاً:

أَرى أُناساً بأَدنى الدينِ قد قنعوا ولا أَراهم رضوا بالعَيْش بالدُّونِ

باسْتَغْنِ بالدِّين عن دنيا الملوك كما اسـ ـتغنى الملوك بدنياهم عن الدينِ

وهو كثير التنفير من الدنيا ومتاعها الذي يزول وتبقى تبعاته، بل إنه ليحمل بين طياته من السموم ما يجعل العاقل يرى فيه حية لينا مسها قاتلاً سمها:

حلاوةُ دنياك مسمومةٌ فما تأكل الشَّهْدَ إلا بِسَمْ

وهى خَدَّاعة غرور، لا يكاد يطمئن شخص فها إلى سرور حتى يهجم عليه حزن مفجع أو مصيبة موجعة، فمن جرَّعته يوماً حلاوتها جرَّعته أياماً مرارتها:

دنيا تداولها العبادُ ذميمةً شِيبَتْ بأَكْرَه من نقيع الحَنْظَل

وبناتُ دهرٍ لا تزال مُلمَّةً فيها فجائعُ مثل وقَعْ الجَنْدلِ

وإنه لواجب على كل إنسان أن يعصر هوى نفسه، فإنها إمارة بالسوء، وإن هو أطاعها حملته ما لا يطيق من الذنوب والآثام، عاصفة منه بسلطان العقل موردة له موارد الهلاك:

رأَيتُ الذنوبَ تميتُ القلوب ويَخْترمُ العقلَ إدمانُها

يبيع الفتى نفسَه في رَداه وأَسْلَمُ للنفس عصيانها

وعلى هذا النحو كان ابن المبارك يكثر من النظم في الدعوة إلى التقوى واجتناب الآثام والشهوات كما كان يكثر من الدعوة إلى الزهد وذم الدنيا فإنها لا تمس أحداً بفرح حتى تملأه

بترح، والحازم من تزود من يومه لغده ومن حياته لآخرته. وقد لبى نداء ربه سنة إحدى وثمانين ومائة للهجرة.

محمد[1] ابن كناسة

كناسة لقب أبيه واسمه عبد الله بن عبد الأعلى من بني أسد، وقد ولد ونشأ بالكوفة في بيت صلاح وتقوى، إذ كان خاله إبراهيم بن أدهم أحد من تذكر أسماؤهم في نشاة التصوف. ونراه يختلف إلى حلقات المحدثين اختلافاً أتاح له أن يحمل الحديث عنه، وأن يعد في رجاله. ويظهر أن موهبته الشعرية تفتحت مبكرة، غير أنه كان - كما يقول أبو الفرج - امرءاً صالحاً فلم يتصد لأحد بمدح ولا هجاء، بل قصر شعره على الزهد وما يتصل به من رياضة النفس على ترك الهوى والاتعاظ بالدنيا وفناء لذاتها وبقاء تبعاتها، فنعمها دائماً زائلة ونقمها نازلة، ومهما طال عمر الإنسان فيها فإلى بلى وفناء وإلى كوارث وفواجع، فكلنا يجري إلى غاية ينتهي عندها أجله، ومن عجب أن تتعلق قلوبنا بها، ونحن كل يوم نقطع مسافة إلى تلك الغاية المحتمة، بل إن منا من يضل طريق الرشاد فيتبع نفسه وهواها، وكان حرياً به، أن يقهرها ويدفع عن نفسه بادرة سطوتها حتى يصون دينه، يقول:

ومن عجب الدُّنْيَا تُبْقِّيك لِلبِلَى ... وأَنك فيها للبقاء مريدُ

وأَيُّ بي الأَيام إِلا وعنده ... من الدهر ذنبٌ طارفٌ وتَليدُ

ومن يأمن الأَيامَ أَما اتِّساعها ... فَخَطْرٌ وأَما فَجْعُها فَعتيد[2]

إذا اعتادت النفسُ الرضاعَ من الهوى ... فإِن فِطامَ النفس عنه شديد

وهو يكرر الحديث عن فطام النفس من الشهوات واللذائذ وأنه ثقيل وأن السعيد من عصى هواه في طاعة ربه، فاجتنب المحارم والمآثم، ويلاحظ أن من الناس من يلوك الأحاديث في

---

١ انظر في ابن كناسة وأخباره وأشعاره الأغاني (طبعة دار الكتب) ١٣/ ٣٣٧ ،والفهرست لابن النديم ص ١٠٥،/ والنجوم الزاهرة ٢/ ١٨٥.

٢ اتساعها: نعيمها، خطر هنا: متقطع: عتيد: مهيئ حاضر

عواقب اتباع الهوى، وكأنه يقول بفمه ما ليس له ظل في قلبه، أو كأنه يعظ ولا يتعظ، وفى ذلك يقول:

ما مَنْ رَوَى أَدباً ولم يعمل بهِ ... ويكفَّ عن زَيْغ الهوى بأَديبِ

حتى يكون بما تعلَّم عاملاً ... من صالحٍ فيكون غير معيب

ولقلما تُغْنِي إصابةُ قائلٍ ... أَفعاله أَفعالُ غيرِ مصيب

فالكلمة إن لم تصدر من القلب لم يكن لها تأثير في القلوب، وعظة الواعظ إن لم تشفع بعمله كان هو أول من لا ينتفع بها، وكانت كالسراج يضئ الدار ويحرق نفسه.

وكان أصدقاؤه من طلاب الدنيا لا يزالون يتلومونه على قعوده عن أبواب الحكام والأمراء، بينما هو يحسن نظم الشعر، ونظراؤه يكسبون به الألوف المؤلفة، وهو يعيش في كفاف وبلغ وصبابة، فكان يردهم رداً منكراً، إذا أعرض عن الدنيا مصمماً، غير راغب في متاعها، فحسبه متاع الآخرة الذي ينتظره والذي يحفظ على نفسه من أجله ماء وجهه ويصون كرامته، فلا يبذلها لمخلوق، فضلاً عن أن يمدحه ويداهنه ويطلب منه ما ينبغي أن لا يتجاوز في طلبه ربه. إنه إن فعل طعن وجهه وحياءه طعنة نجلاء، بل طعن زهده وتقواه، إذ يصبح من طلاب الدنيا لا من طلاب الآخرة ومن يؤثرون نعيم العاجلة على نعيم الباقية، يقول مجيباً بعض لائميه:

تؤنِّبني - أَن صُنْتُ عِرضي - عصابةٌ ... لها بين أَطنابِ اللئام بَصِيصُ[1]

يقولون لو غمَّضْتَ لازددتَ رفْعَةً ... فقلتُ لهم إني إذنْ لحَرِيصُ[2]

أَتَكْلِمُ وجهي - لا أباً لأبيكمُ - ... مطامعُ عنها للكرام مَحِيصُ[3]

معاشي دُوَيْنَ القوت، والعِرْض وافرٌ ... وبَطْنيَ عن جَدْوى اللئام خَمِيصُ[4]

---

١ الأطناب: حبال الخيام والاستعارة واضحة. بصيص: بريق

٢ غمضت: تساهلت. حريص:جشع

٣ تكلمك: تجرح

٤ الجدوى: العطية. خميص: ضامر

سأَلقى المنايا لم أُخالط دَنِيَّةً ولم تَشْرِ بي في المخزيات قَلُوص[1]

وكانت له جارية شاعرة مغنية تسمى دنانير وكان ذوو المروءة من أهل الأدب يقصدونها للمحادثة والمساجلة في الشعر، وكان يقدرها لظرفها وسعة ثقافتها وقدرتها على المشاركة في كل الأحاديث، واختطفها منه الموت، فحزن حزناً عميقاً، صوره في قوله يرثيها، وقد استسلم لأمر ربه:

الحمدُ لله لا شريكَ له يا ليت ما كان منكِ لم يكن

إن يكن القول قَلَّ فيك فما أَفْحمَني غيرُ شدَّة الحَزَنِ

وله مرثية طريفة في خاله إبراهيم بن أدهم، وهي ترسم صورة العابد الناسك في العصر العباسي الأول وكيف كان يعيش على الكفاف قانعاً به، مزدرياً الدنيا ومتاعها، مقبلاً على عبادة ربه، قامعاً لدواعي الهوى في نفسه، متحلياً بالفضائل الرفيعة لا يعرف الغضب ولا الطيش، إنما يعرف الحلم والمثل الخلقية العليا، يعيش صامتاً مفكراً في ملكوت ربه الأعلى، حتى إذا نطق استولى على القلوب والأفئدة ببيانه الرائع. وهو دائما مستكين خاضع لربه متواضع أروع ما يكون التواضع الذي لا يخدش مروءة ولا كرامة، حتى إذا رعدت الكتيبة بصواعق الموت تقدم الصفوف يناضل مناضلة الليوث الكواسر، وفى ذلك كله يقول مخاطباً بعض من لا يزالون يستزيدون من الغنى والثراء:

رأَيتك ما يكفيك ما دونه الغِنَى وقد كان يكفي دون ذاك ابنَ أَدْهما

وكان يرى الدنيا صغيراً عظيمُها وكان لحقِّ الله فيها معظِّما

أَمات الهوى حتى تجنَّبه الهَوَى كما اجتنب الجاني الدَّم الطالب الدَّما

وللحلم سلطانٌ على الجهل عنده فما يستطيع الجهل أَن يَتَرَمْرَمَا[2]

وأَكثر ما تلقاه في القوم صامتاً وإن قال بَذَّ القائلين وأَحكما

---

١ القلوص من النوق: الشابة

٢ يترمرم: لا يتحرك للكلام

يُرَى مستكيناً خاضعاً متواضعاً ... ولَيْثاً إذ لاقى الكتيبةَ ضَيْغَما

على الجَدَثِ الغربيِّ من آل وائلٍ ... سلامٌ وبِرٌّ، ما أَبَرَّ وأَكرما[1]

ولعل في كل ما قدمنا ما يصور كيف كان ابن كناسة يصفي قلبه وعقله للزهد وكيف كان يمزجه بنفسه، وكيف كان يعيش له وبه مؤمناً بأنه الغاية العليا التي ينبغي أن يطمح إليها الإنسان ويقصر عليها حياته، حتى يفوز برضوان ربه، وقد لبى نداءه لسنة سبع ومائتين للهجرة.

محمود[2] الوراق

ليس بين أيدينا أخبار كثيرة توضح حياة محمود، ويقال إنه كان نخاساً ببغداد يبيع الرقيق، ويبدو أنه كان في فاتحة حياته يأخذ بحظ من اللهو، ثم كف نفسه وردعها، وأخلص وجهه لربه. وفى أخباره ما يدل على حسن شعيرته لجواريه وأنهن كن لا يؤثرون عليه أحداً، وكانت جاريته سكن من بينهن من أحسن قريناتها وجهاً، وكانت تتقن الغناء وتنظم الشعر البارع، فملكت عليه لبه وقلبه، وحدث أن رقت حاله واختلت حياته، فرأى أن يبيعها حتى يوفر لها خفض العيش عند غيره، وتنافس الناس في اقتنائها، وعرض فيها أحد الطاهرين مائة ألف درهم، فمال محمود إلى بيعها، ولما عرض عليها ذلك بكت وذرفت الدموع، وقالت له إني أختار عيشة الفقر معك، فرق لها وحررها وأصدقها داره، وكانت كل ما يملك. ومن طريف ما يروى من أخبار جواريه اللائي كن ينعمن بعطفه أن المتوكل عرض له في إحداهن عشرة آلاف دينار، فأبى فلما توفي اشتراها في ميراثه بخمسة آلاف دينار. وذكر لها المتوكل ما كان من أمر محمود معه، فقالت: يا أمير المؤمنين إذا كانت الخلفاء تتربص بلذاتها المواريث فسنشتري بأرخص مما اشتريت.

---

١ الجدث: القبر

٢ انظر في محمود وأخباره وأشعاره تاريخ بغداد ١٣/ ٨٧ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٦٧، ٤٢٢ والبيان والتبيين ٣/ ١٩٧ وما بعدها والعقد الفريد ١/ ٢٢٨، ٢/ ٢٨٥، ٣/ ١٧٩، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٥، وما بعدها، ٦/ ٤٠٤ وفوات الوفيات ٢/ ٢٨٥ وعيون الأخبار ٣/ ٥٣.

ولعل العصر العباسي الأول لم يعرف شاعراً أكثر من الحديث عن الزهد واعظاً مذكراً كما أكثر محمود، وهو يتخذ لذلك مواقف متعددة، منها موقف وجوب الطاعة لله ولأوامره ونواهيه، فالمسلم الصحيح ينبغي أن لا يقترف إثماً ولا يرتكب معصية، وإلا أوثقته ذنوبه ولم يجد من يخلصه من عذاب الله ووعيده، وحري بمن ألهته الدنيا، وتراكمت عليه الذنوب، أن لا يؤمل في جنة ولا ثواب، فقد أستحق العقاب، يقول:

يا غافلا ترنو بعيني راقدٍ ... ومشاهداً للأمر غيرَ مشاهدِ

تصلُ الذنوب إلى الذنوب وترتجي ... دَرَكَ الجِنانِ بها وفوزَ العابدِ

ونسيتَ أَن الله أَخرج آدماً ... منها إلى الدُّنْيا بذنبٍ واحدِ

لابد للمسلم إذن أن يبادر إلى العمل الصالح وأن يجافى الذنوب والآثام حتى يكون حقاً مطيعاً لربه، وهي طاعة لا تتم معرفة الله وشكر نعمة بدونها، بل لا تتم محبته محبة صحيحة، إلا إذا ألح الإنسان في التماسها وابتغى إليها كل وسائل العبادة متحامياً المعاصي وكل ما يجر إلى العصيان، منقطعاً إلى الله متبتلاً له، يقول:

تعصى الإله وأَنت تظهر حُبَّه ... هذا محالٌ في القياس بديعُ

لو كنت تضمر حبَّه لأَطعته ... إن المحبَّ لمن أَحبَّ مُطيع

في كل يومٍ يَبْتليك بنعمةٍ ... منه وأَنت لشكرِ ذاك مُضيع

وموقف ثان هو موقف الرضا بقضاء الله، وهو موقف يملأ نفس الزاهد طمأنينة وراحة، بل تفاؤلاً وأمناً، فلا يبخشى شيئاً، إذ لا يتمنى غير ما يحدث، وكل ما ينزل به يتقبله بنفس راضية، يقول:

قَدَرُ الله كائنٌ ... حين يُقْضَى وُرُودُهُ

قد مضى فيك عِلْمه ... وانتهى ما يريده

وموقف ثالث هو التوكل الحق على الله والثقة به، والاعتماد عليه دون سواه من الناس، فهو الكافل والضامن، وهو الذي يقدر ما يصيب الإنسان، ولن يستطيع الوصول إليه قبل موعده

المقدور ولو طلبه بقوة السماء والأرض، وقد كفل له رزقه وضمن له حياته، فنعم الضامن الكفيل، يقول:

أَتطلب رزق الله ومن عند غيرِهِ ... وتصبحُ من خوف العواقب آمنا

وترضى بعرَّافٍ[1] وإن كان مُشْركاً ... ضَمينا ولا ترضى بربِّك ضامنا

ويقول:

أَما عجبٌ أَن يكفل الناسُ بعضهم ... ببعضٍ فيرضى بالكفيل المطالبُ

وقد كطفل الله الوفيُّ بعهدِهِ ... فلم يُرْضَ والإنسان فيهِ عجائبُ

عليمٌ بأن الله موفٍ بوعدِهِ ... وفي قلبه شكٌّ على القلب دائبُ

وهذا الموقف أداه إلى موقف رابع هو القناعة، أو بعبارة أخرى أن يقنع الإنسان بما عند الله وما أدخره له في يومه وغده، وأن يقلع عن الطمع وإلا أصبح ما يكفيه لا يكفيه وإن أقبلت عليه الدنيا بحذافيرها، بل إن شدة الطمع تؤدي بصاحبها إلى أن يصبح أشد ضنكاً من الفقير المحتاج، والغنى الحقيقي هو غنى النفس القانع لا غنى الثراء الجشع، وفى ذلك يقول:

من كان ذا مالٍ كثيرٍ ولم ... يَقْنَع فذاك الموسِرُ المُعْسِرُ

وكلُّ من كان قنوعاً وإِنْ ... كان مُقِلاً فهو المُكْثِرُ

الفقرُ في النفس وفيها الغِنى ... وفي غنَى النفس الغِنى الأَكبر

ويكثر محمود من تقريع غنيِّ المال فقير النفس، مصوراً جشعه في جمع الدراهم والدنانير وإلحاحه في طلبها، واسترقاقها له، بل عبادته لها وهيامه بها الذي لا يقف عند حد، إذ فتنته عن نفسه وعن دينه وعن ربه. وكان يعجب عجباً شديداً كيف يجمع عبدة المال بينه وبين عبادة ربهم وهو قد استأثر بقلوبهم وعواطفهم وأهوائهم وملك عليهم كل شئ من أمرهم، يقول:

أَظهروا للناس ديناً ... وعلى الدينار داروا

---

١ العراف: المنجم والناظر في الغد

وله صاموا وصَلُّوا | وله حَجُّوا وزاروا
لو بدا فوق الثُّرَيَّا | ولهم ريشٌ لطاروا

ودائما يقول ألا تباً للغنى الذي يتملك الإنسان ويستعبده، ومرحى بالفقر وعيشة الكفاف التي يعيشها الزهاد، غير ملتمسين شيئاً فوق ما يسد رمقهم ويدفع الحاجة عنهم، ويكفي فقر الزهاد سموا أنك لا تجد فقيراً يعصى الله ليفتقر، بينما يفتح الثراء على أصحابه أبواب الحرص والطمع، بل إنهم يخوضون إليه أحياناً أبواب المعاصي ومن ورائها أبواب سقر، وفى ذلك يقول هذه البيات التي أنشدناها في الفصل الرابع:

يا عائبَ الفقر أَلا تَزْدَجِرْ | عَيْبُ الغِنى أكثر لو تَعْتَبِرْ
من شرف الفقر ومن فضلهِ | على الغِنى إن صَحَّ منك النَّظَرْ
أنك تعصى كي تنال الغِنى | وليس تَعْصِى الله كي تفتقر

وموقف خامس هو الصبر عند فواجع الزمان فإن من حسنت عقيدته استقبل الكارثة كما يستقبل النعمة ولم تذهب نفسه حسرات إزاء صروف الدهر، بل تدرع بالصبر الجميل درع العباد الناسكين الذين خبروا الحياة وعرفوا أنها هم تلو هم وأن كل شئ فيها إلى فناء، يقول:

يمثِّل ذو الُّلبِّ في نفسهِ | مصائبَه قبل أَن تنزلا
فإن نزلتْ بَغْتَةً لم تَرُعْهُ | لما كان في نفسه مثَّلاً
رأَى الهمَّ يفضي إلى آخَرٍ | فصيرَّ آخِرَه أولاً
وذو الجهل يأْمن أَيَّامه | ويَنْسَى مصارعَ من قد خلا
فإن بَدَهْتُه صروفُ الزمان | ببغض مصائبِه أَعْوَلا
ولو قدَّم الحزمَ في أمرهِ | لعلَّمه الصَّبْرَ عند البَلا[1]

---

١ البلا: مقصود البلاء

وموقف سادس هو اتخاذه نم الشيب نذيراً للموت، وأنه إذا دب السواد خلال البياض كان ريحاً بالإنسان أن يقلع عن غيه ويتزود لآخرته، فقد دقت أجراس الموت وملأت الفضاء من حوله، وجدير به أن يبكى ويتفجع على نفسه، فالحياة توشك أن تنقضي ويوشك ظلها أن ينحسر عنه إلى غير مآب، كما انحسر عن الأفراد والأمم، يقول:

بكيتَ لقُرْب الأَجَلْ ... وبُعْد فوات الأَمَلْ

ووافدِ شَيْبٍ طَرَا ... بِعقْبِ شبابٍ رَحَلْ

شبابٌ كأَن لم يكن ... وشيبٌ كأَنْ لم يَزَل

طواك بَشِيرُ البقاءِ ... وحَلَّ بشير الأَجَلْ

طوى صاحبٌ صاحباً ... كذاك اختلافُ الدُّولْ

وموقف سابع هو العفو عن الظالم، فهو لا يلقى الإساءة بالإساءة إذ يجد في ذلك وقوداً لتهييجها، وإنما يلقاها بالعفو والرفق والبر والرحمة مطفئاً نار الجهل بالحلم وموجدة الغضب بالصفح. وهى خصلة من خصال الإسلام الرفيعة حث عليها الذكر الحكيم بمثل قوله: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) وقوله: (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وقوله: (وأن تعفو أقرب للتقوى). وإنما أراد الإسلام بذلك أن يزرع البر والمحبة في قلوب المسلمين بعفو بعضهم عن بعض، مع وعده لهم على هذا الصنيع بالأجر والمثوبة الحسنة. وعن كل ذلك صدر محمود في تصوير عفوه عن بعض ظالميه قائلاً:

إني وهبتُ لظالمي ظُلْمي ... وغفرتُ ذاك له على علْمِ

ورأَيتُه أَسْدى إِلَيَّ يَدًا ... لما أَبان بجهله حِلْمي

رجعتْ إساءَتُه عليه وإحْـ ... ـساني إِلَيَّ مضاعَف الغُنْمِ

وغدوتُ ذا أَجْرٍ ومحمدةٍ ... وغدا بكسْب الظلم والإِثْمِ

وكأَنما الإِحسان كان لَهُ ... وأَنا المسيءُ إِليه في الحكم

مازال يظلمني وأَرحمه حتى رثيتُ له من الظُّلْمِ

وهذه المواقف الزهدية المختلفة لمحمود توضح غزارة فكره وأنه كان يستمد من معين عقلي وروحي لا ينضب، فهو تارة يرغب في محاسن الأخلاق والشيم تارة يعظ ويذكر ناصباً الموت أمام أعين الناس حاثاً لهم على الإعراض عن الدنيا ومتاعها الفاني والتوكل على الله والرضا بقضائه واتخاذ العدة للقائه، وقد توفى في حدود المائتين والثلاثين أو بعدها بقليل.

٤

شعراء الاعتزال

تحدثنا في الفصل الثالث عن كثرة الفرق الكلامية في هذا العصر، وقلنا إن فرقة المعتزلة كانت أهم هذه الفرق، حتى ليمكن أن نسمي هذا العصر عصر الاعتزال، وقد ملئوا مساجد البصرة بجدلهم العنيف مع أهل النحل والملل المختلفة، واستمالوا كثرة الشباب إلى عقيدتهم بما أوتوا من قوة اللسن والفصاحة وما سلحوا به عقولهم من المنطق والفلسفة، بل لقد استمالوا الخلفاء منذ عصر المأمون، فإذا هو يعلن رأيهم في أن القرآن مخلوق عقيدة رسمية للدولة. وكانوا - كما أسلفنا - يعلون النظر العقلي إعلاء كبيراً، حتى ليحيط بشر بن المعتمر العقل - كما مر بنا في الفصل الرابع - بهالة قدسية، وهو إعلاء جعلهم يقولون بأن إرادة الإنسان حرة يفعل ما يشاء بمحض اختياره، حتى يوجبوا عليه التكليف وثمرته من الثواب والعقاب حسب عمله، وأد أهم ذلك إلى البحث في العلاقة لا بين الله والإنسان فحسب، بل أيضاً بين الله والطبيعة، ففيها علل ثانوية فعالة تقابل حرية الإرادة عند الإنسان، وإذا كان الله يتصف بالعدل إزاء الإنسان وثوابه وعقابه فإنه يتصف بالحكمة إزاء الطبيعة وكل ما خلقه فيها وبثه حتى من عناصر الشر. وبلغ من تمجيدهم العقل أن قالوا إن الإنسان يستطيع به حتى لو لم تصله الشرائع أن يعرف أن للعالم إلهاً واحداً خالقاً حكيماً، يعرف ذلك عن طريق مصنوعاته، وأفضى بهم ذلك إلى مباحث واسعة في الطبيعة. وقد نزهوا الله عن التشبيه والزمان والمكان والحركة، وقالوا إن صفاته عير ذاته، وأفاضوا في هذه المباحث وما يماثلها إفاضة بحيث أصبح لكثير منهم مذاهب اعتزالية متميزة على نحو ما صورنا ذلك في الفصل الثالث من بعض الوجوه.

ولا يكاد يلم القارئ بآرائهم ومذاهبهم في كتاب مثل كتاب الملل والنحل للشهرستاني حتى يهوله ما امتازت به عقولهم من خصب وامتياز، فقد استطاعوا أن ينفذوا من خلال كل ما قرءوا من ثقافات وفلسفة مترجمة إلى فلسفة إسلامية حقيقية، بحيث لا نغلو إذا قلنا إنهم فلاسفة العرب الأولون، إذ لم يقفوا بمباحثهم عند العقيدة الإيمانية، بل بسطوها حتى وسعت كل ما

خاض فيه اليونان وغير اليونان من مسائل الإلهيات والطبيعيات مما يتصل بمبادئ الموجودات والجسمانيات والروحانيات التي وراء الطبيعة والعناصر المكونة للمحسوسات وكل ما تنبعث عنه الحركات في الكون والنفس الإنسانية. وبذلك تحول الاعتزال في هذا العصر إلى ما يشبه كنزاً فلسفياً سائلاً ما يزال يرفد الفكر العربي بدرره وجواهره، وتحول شباب الشعراء وغيرهم يستمدون منه عتاداً لعقولهم ومادة خصبة لخواطرهم، مما جعل أبا نواس وغيره يلوكون بعض مصطلحاتهم.

وكان من المعتزلي أنفسهم شعراء كثيرون شاركوا في مجال الشعر، ومشاركتهم فيه تأخذ وجهتين: وجهة عامة فهم ينظمون فيما ينظم فيه غيرهم من موضوعات الشعر وأغراضه، ووجهة خاصة فهم ينظمون في الاحتجاج لآرائهم الكلامية وفيما يتصل بها من بعض المباحث في الطبيعة، وكثيراً ما يردون على خصومهم من أصحاب النحل المختلفة. وأقدم شاعر منهم يلقانا في فاتحة هذا العصر صفوان الأنصاري تلميذ واصل بن عطاء ونراه يتصدى لبشار حين عرف فيه أستاذه إلحاده ونادى في الناس أن يقتلوه، لقوله بالرجعة ولتفضيله النار على الطين وبالتالي إبليس على آدم معتذراً له عن عصيانه لربه حين طلب إليه السجود له، فأبى وآب بالكفر والعصيان والخذلان. ولصفوان في تصديه لبشار موقفان: موقف يمدح فيه واصلاً ويتحدث عن أتباعه وذبهم عن الدين وحرماته وما أوتوا من الفصاحة واللدد في الخصومة، وكيف يضربون في أقطار الأرض داعين للإسلام ولعقديتهم، مستطرداً إلى وصف سيمائهم ونسكهم وتقشفهم، وفيهم وفى أستاذهم يقول:

تلقَّب بالغَزَّال واحدُ عَصْرِهِ ... فمَنْ لليتامى والقبيل المكاثرِ[1]

ومنْ لحَرُوريٍّ وآخرَ رافضٍ ... وآخرَ مُرْجِئٍ وأخر جائرِ

وأَمرٍ بمعروفٍ وإنكار منكَرٍ ... وتحصين دين الله من كلِّ كافر

له خَلْف شعْب الصِّين في كل ثُغْرَةٍ ... إلى سُوسها الأَقْصى وخلفَ البرابر

---

١ لقب واصل بالغزال لأنه كان يكثر الجلوس في سوق الغزالين، وعلل المبرد لذلك بأنه كان يريد الوقوف على المتعففات من النساء ليصرف صدقته إليهن. وانظر في البيات البيان والتبيين ١/ ٢٥ وما بعدها

رجالٌ دعاةٌ لا يَفُلُّ عَزِيمَهُمْ تهكُّمُ جَبَّارٍ ولا كَيْدُ ماكِرِ

وأَوتادُ أرض الله في كل بلدةٍ وموضعُ فُتْيَاها وعلمِ التشاجُرِ

وموقف ثامن سبق أن عرضنا له في ترجمتنا لبشار، ينقض فيه تفضيله النار على الأرض ونفوذه من ذلك إلى تصوير رأى إبليس في رفضه أمر ربه له بالسجود لآدم، كما ينقض مزاعمه في الرجعة والتناسخ وتكفيره لجميع الأمة، وخير ما يصور ذلك داليته التي أنشدها الجاحظ، وهو فيها يسهب في بيان فضائل الأرض، بادئاً بأنها تحمل النار، على نحو ما هو معروف في الحجارة والزند، ثم يفيض في بيان طرائفها المبثوثة في البحار من لآلئ وغير لآلئ، ومن عنبر وغير عنبر، مع ما تحمل من السمك السابح، إلى طرائف لا تكاد تحصى في الجبال والحرار واظهر الأرضين من الأحجار الكريمة والذهب والفضة والمعادن النفيسة، بالإضافة إلى الأماكن المقدسة، مما يدل دلالة ناصعة على عظمة الخالق، ومن قوله في ذلك [1]:

زعمتَ بأَن النارَ أَكرمُ عُنْصُراً وفى الأَرض تَحْيَا بالحجارة والزَّنْد

وتُخْلَقُ في أَرحامها وأَرومها أعاجيبُ لا تُحْصَى بخطٍّ ولا عَقْدِ[2]

وفى القَعْرِ من لُجِّ البحارِ منافعٌ من اللؤلؤ المكنون والعنبر الوَرْد[3]

وفى قُلَلِ الأَجْبال خلف مقطَّمٍ زبرجدُ أملاك الورى ساعةَ الحَشْد[4]

وفى الحرَّة الرَّجلاء تُلْفَى معادنٌ لهنَّ مغاراتٌ تبجَّسُ بالنَّقْد[5]

من الذهبِ الإبريز والفضة التي تروق وتُصْبى ذا القناعة والزُّهد

وكل فِلِزٍّ من نحاسٍ وآنُكٍ ومن زئبق حَيٍّ ونوشاذُرٍ يُسْدِى[6]

---

١ البيان والتبيين ١/ ٢٧

٢ العقد: الحساب، ويريد العد

٣ الورد: الأحمر

٤ المقطم: جبل مصر الممتد من القاهرة إلى أسوان على الشاطئ الشرقي للنيل

٥ الحرة: أرض بركانية سوداء الحجارة. الرجلاء: الوعرة الخشنة. تبجس: تتفجر

٦ آنك: رصاص. النوشاذر بالذال والدال: حجر أبيض صاف كالبلور

وكلُّ يواقيتِ الأَنام وحليْها ... من الأَرض والأَحجار فاخرةِ المجد

وفيها مقامُ الخِلِّ والرُّكْنُ والصَّفَا ... ومُسْتَلَمُ الحُجَّاج من جَنَّة الخُلْدِ

ويأخذ صفوان بعد ذلك في بيان حقيقة بشار ويظهر أنه كان حينئذ يردد آراء فرقة الكاملية إحدى فرق الشيعة الغالية، وقد أكفر صاحبهم أبو كامل جميع الصحابة لتركهم بيعة على وطعن في على لقبوله التحكيم ولأنه قعد في عهد الخلفاء الثلاثة أول عن المطالبة بحقه، وكان يرى أن الإمامة نور يتناسخ من شخص إلى شخص. ويظهر أيضاً أنه كان يردد بعض ما قاله ديصان وماني عن النور والظلمة وأنه كان لا يزال يلوك أسماء غالية الشيعة من مثل ليلى الناعظية وأبي منصور العجلي وابن عمه المغيرة بن سعيد وغيرهم، ويسجل ذلك كله صفوان عليه، يقول:

أَتجعلُ عَمْراً والنِّطاسيَّ واصلا ... كأَتباع دَيْصانٍ وهُمْ قُمُشُ المدِّ[1]

فيا ابنَ حليفِ الطِّين واللؤم والعمى ... وأَبْعدَ خَلْقِ الله من طُرُقِ الرُّشْدِ[2]

أَتهجو أَبا بكرٍ وتخلع بعده ... عليًّا وتَغْزُ كلَّ ذاك إلى بُرْد[3]

كأَنك غضبانٌ على الدين كلِّه ... وطالبُ ذَحْلٍ لا يبيت على حقْدِ

أتجعل ليلى الناعظيَّةَ نِحلةً ... وكلَّ عريقٍ في التناسخ والرَّدِّ

وقد خلص بشار بعد ذلك للمذاهب المجوسية وعبادة إلهي النور والظلمة. ولم يصلنا لصفوان ردود على الملحدة وأصحاب النحل والأهواء المختلفة وراء هذا الرد على بشار، وأغلب الظن أنه كان يرد عليهم كثيراً وأن القدماء لم يثبتوا ردوده. وسنرى بشر بن المعتمر يسير على هديه في هذا الاتجاه. ومثله العطوي الذي نلقاه بأخرة من هذا العصر، وقد أنشد له القالي قصيدة يرد فيها على هشام بن الحكم الرافضي أحد متكلمي الشيعة الغالين وما كان يزعمه من

---

١ قمش: آراذل

٢ يشير إلى حرفة أبيه برد وأنه كان طياناً يضرب اللبن

٣ ذحل: ثأر. لا يبيت على حقد: يريد أنه يسارع إلى الأخذ بثأره

التشبيه على الله وأنه في صورة إنسان وله نفس الحواس الخمس، تعالى الله عن ذلك علواً بكـيراً، وله يقول العطوي في بعض رده[1]:

جلَّ رَبُّ الأَعراض والأَجسامِ ... عن صفات الأَعراض والأَجسامِ

جلَّ رِّبى عن كل ما اكتنفتْه ... لحَظاتُ الأَبصار والأَوهام

بَرِئَ الله من هشامٍ وممن ... قال في الله مثلَ قول هشامِ

قُلْ لمن قال قوله ورآه ... خبرَ مسترشَدٍ وخبر إمامِ

لمَ أَنكرتَ قول من عبد الشَّمْـ ... ـسَ وصلَّى للأَنْجُم الأَعلامِ

ما الدليلُ المبينُ عن حَدَث العا ... لم أَفْصحْ به لَدَى الأَقوامِ

لا دليلُ فلا تَرُمْهُ وقد قُلْـ ... ـتَ كبعض الأَنام ربُّ الأَنامِ

لم تُرِدْ غير قِدْمَةِ الخَلْق فاقْصِدْ ... قَصْدَهُ دَعْ مناقَضات الكلامِ

وواضح أن العطوي يرى في التشبيه على الذات الإلهية تعطيلاً للألوهية، فالله بـنص القـرآن ليس كمثله شئ وهو منزه عن كل تجسيد وتجسيم، ولو أشبهته المخلوقات لأصبح العـالم قـديماً مثله، ولكان هناك قديمان: الله والعالم، ومن أجل ذلك حارب المعتزلة القائلين بهذا القـول مـن فلاسفة اليونان ومن بعض المتكلمين أمثال هشام حرباً عنيفة فالله وحده هو القديم، أمـا العـالم فحادث، خلقه الله وأحدثه، والدلالة على حدوثه وخلقه قائم في بنيته وتركيبه.

وكان العطوي ينظم في أغراض الشعر المختلفة صابغا كثـيراً مـن معانيـه بأصـباغ المعتزلـة، ونقصد القدرة على توليد الأفكار واستنباط خبيئاتها، وفى ذلك يقول بعض القدماء "كان له فن من الشعر لم يسبق إليه، ذهب فيه إلى مذهب أصحاب الكلام ففارق جميع نظرائه وخف شـعره على كل لسان وروى واستعمله الكتاب واحتذوا معانيه وجعلـوه إمامـاً". وقـد أنـشد لـه أبـو الفرج في أغانيه طائفة من الشعار في أغراض مختلفة، وهى تصور كيف كان يطلب الإطـراق في

---

١ أمالي القالي ٢/ ٢٣٦

المعنى والخيال من مثل قوله يرثى أحمد بن أبي دؤاد شيخ المعتزلة في عصره ومقدمهم عند المعتصم والواثق[1]:

أَحْنَطتهُ يا نَصْرُ بالكافورِ وزفَفْتَهُ للمنزل المهجورِ[2]

هلا ببعض خصاله حَنَّطته فيَضُرع أُفْقُ منازلٍ وقبور[3]

وقوله في رثائه أيضاً[4]:

وليس بنسيم المسك رَيَّا حَنوطِه ولكنه ذاك الثناءُ المخلَّفُ[5]

وكان منهوماً بالنبيذ والشراب، وله في وصف الصبوح وذكر الندامى والمجالس أشعار كثيرة نقع فيها على المعاني النادرة من مثل قوله[6]:

فكم قالوا تَمَنَّ فقلت كأسٌ يطوف بها قضيبٌ من كثيبِ

ونَدْمانٌ تساقطني حديثًا كلحظ الحبِّ أَو غَضِّ الرَّقيب

وعلى هذا النحو كان العطوي يتأتى لمعانيه محاولاً أن يصل غلى كثير من دقائق الأخيلة والأفكار حتى يبهر معاصريه. ولعل من الخير أن نعرض بشيء من التفصيل لثلاثة من شعراء المعتزلة دوت أسماؤهم في هذا العصر وهم العتابي وبشر بن المعتمر والنظام.

---

١ الأغاني ٢٠/ ٨٥

٢ أحنطته: من الحنوط وهو كل طيب يخلط للميت

٣ يضوع: يفوح

٤ أغاني (طبع الساسي) ٢٠/ ٥٩

٥ ريا: شذى ورائحة

٦ أغاني ٢٠/ ٥٩

العتابي[1]

هو كلثوم بن عمرو بن أيوب التغلبي، يتصل نسبه بعمرو بن كلثوم أحد أصحاب المعلقات السبع، ولد ونشأ في قنسرين بالشام، ثم سكن الرقة بالموصل، وتحول عنها إلى بغداد، واختلف إلى حلقات المتكلمين، ولم يلبث أن شغف بالمعتزلة والاعتزال، كما شغف بالآداب الفارسية شغفاً أداه إلى تعلم الفهلوية من جهة، كما أداه إلى الرحلة مراراً إلى خزائن الكتب بمرو وخراسان، ليتزود منها بكنوز الأدب الفارسي، ومر بنا في الفصل الرابع إكبابه على هذه الكتب ونسخه لكثير من صحفها ومعانيها، كما جعل بعض معاصريه يعجب من كثرة نسخه لها، وقد ابتدره قائلاً: هل المعاني والبلاغة إلا في كتب العجم؟ اللغة لنا والمعاني لهم. وكان طبيعياً أن يؤديه اعتزاله إلى قراءة كتب الفلسفة، بل يظهر أنه تعمق في قراءتها، وهو تعمق دفعه إلى أن يؤلف في علم المنطق كتاباً اشتهر في عصره، وله بجانبه مصنفات لغوية وأدبية مختلفة منها كتاب الألفاظ وكتاب فنون الحكم، وفيه يقول المسعودى: "كان من العلم والقراءة والأدب والمعرفة والترسل وحسن النظم للكلام وكثرة الحفظ وحسن الإشارة وفصاحة اللسان وبراعة البيان والمكاتبة وحلاوة المخاطبة وجودة الحفظ وصحة القريحة على ما لم يكن لكثير من الناس في عصره مثله، وكان إلى ذلك يتزهد في متاع الدنيا ويلبس الصوف أسوة بالناسكين. وسمع يحيى ابن خالد البرمكي وزير الرشيد بفضله فوصله به وبمجالسه، وأخذ يضفي عليه هو وابناه الفضل وجعفر من نوالهم، وهو يضفي عليهم من مدائحه، ولم يلبثوا أن قدموه إلى الرشيد، فمدحه ونال جوائزه السنية، مع انقطاعه لهم. ويروى الرواة أن الرشيد سمع باعتزاله، ولم يكن يعجب بالاعتزال ولا بالمعتزلة، فطلبه، وخشي البرامكة مغبة طلبه، فستروه عنه مدة، وقيل إنه هرب إلى اليمن، ومازال يحيى بن خالد البرامكة - وقيل إنه جعفر - سيتعطف الرشيد عليه،

---

١ انظر في العتابي وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ٢٦١ والشعر والشعراء ص ٨٣٩ والبيان والتبيين ١١/ ٥، ١٢٠، ٢٢٠، ٣/ ٥٣، ٤/ ٥٦ والحيوان ٣/ ٦٢، ٤٨٣ والأغاني ١٣/ ١٠٩ والفهرست لابن النديم ص ١٧٥ ومعجم الأدباء ١٧/ ٢٦ ومروج الذهب للمسعودى ٣/ ٣٣٧ وما بعدها والوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢٣٣، ٢٦٢ وتاريخ بغداد لطيفور ص ٨٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٢/ ٤٨٨ والفرج بعد الشدة للتنوخي ٢/ ١١٩ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢/ ١٨٦.

حتى استل ما في نفسه وأمنه. ويروى أنه غضب عليه حين ثار الوليد بن طريق الخارجي الشيباني، لاشتراك بعض قومه، وكان يزيد بن مزيد الشيباني قضى على الوليد فلوح بأن يزيد غسل عن ربيعة كلها ذنبها، فرضى عنه ووصله.

ومازال العتابي منقطعاً غلى البرامكة حتى إذا فتك بهم الرشيد ظل يمدحه واصلاً أسبابه بطاهر بن الحسين وابنه عبد الله وعلى بن هشام أحد القواد الأجواد في العصر. ويظهر أنه كان يكثر من التردد على الرقة ورأس عين في ديار الجزيرة شمالي العراق. ولما تحول المأمون من مرو إلى بغداد وعقد المجالس لجلة العلماء يتناظرون ويتحاورون بين يديه أشخص العتابي إليه، ووالى بره ونواله عليه.

وقد أشاد القدماء بشعر العتابي وبراعته في الحوار في كل ما كتب من رسائل، وفى ذلك يقول ابن المعتز: "كان العتابي مجيداً مقتدراً على الشعر عذب الكلام وكاتباً جيد الرسائل حاذقاً، وقلما يجتمع هذا لأحد، وما سمعت كلاماً قط لأحد من المتكلمين أحسن من كلام العتابي.. فإنه كان فحل الشعر جيد الكلام" ويقول أبو الفرج عنه: "شاعر مترسل بليغ مطبوع متصرف في فنون الشعر ومقدم من شعراء الدولة العباسية" ويقول الجاحظ: "ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمرو العتابى، وكنيته أبو عمرو، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله في البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من الشعراء المولدين كنحو منصور النمرى ومسلم بن الوليد الأنصارى واشاههما، وكان العتابى يحتذى حذو بشار في البديع". ويقول في موضع آخر من بيانه: "العتابى يذهب شعره في البديع".

والجاحظ لا يقصد بالبديع المحسنات المعروفة من الجناس والطباق والتصاوير فحسب، بل يقصد أيضاً المعاني الطريفة النادرة التي أتاحت للعتابى ثقافته الواسعة اجتلابها وعرضها في معارض تمتع النفس وترضى العقل والقلب. ، وأول ما نقف عنده مديحه، وقد طارت له فيه قصيدة في الرشيد نظمها حين سخط عليه لثورةالوليد بن طريف التي أشرنا إليها فيما أسلفنا، وهو يستهلها بذكر الأطلال والنسيب على هذه الشاكلة:

ماذا شجاك بِحُوَّارين من طللٍ ودِمْنَةٍ كشفتْ عنها الأَعاصيرُ[1]

شجاك حتى ضميرُ القلب مشتَرَكٌ والعينُ إنسانها بالماءِ ومغمورُ[2]

فى ناظرىّ انقباضٌ عن جفونهما وفى الجفون عن الأماق تقصير

لبِسْتَ أَرْدِيَةَ النوار من طللٍ وزِلْتَ أَخضرَ تعلوك الأَزاهيرُ[3]

وواضح ما في هذا المطلع من دقة في التفكير، فهو يصور شجو نفسه وحزنها حين الم بالطلل، ويطيل في هذا التصوير، محاولاً النفوذ إلى خيال بديع على نحو ما يتضح في البيت الثالث، وهو لا يعنى بدقة الفكر والخيال وحدهما بل يعنى أيضاً بدقة الحس على نحو ما نرى في دعائه الرقيق للطلل بأن يظل مكسواً بالخضرة والأزهار والرياحين ويتحول إلى المديح بمثل قوله في الرشيد:

مستنبطٌ عزماتِ القلب من فِكَرٍ ما بينهنَّ وبين الله معمورُ

فُمتَّ المدائح أَن أَنفسنا مستنطقاتٌ بما تحوى الضَّمائير

ماذا عسى مادحٌ يثنى عليك وقد ناداك في الوَحْى تقديسٌ وتَطْهيرُ

وهو دائماً في مديحه له يمزج بين تصوير حزمه وبصره بالرأى الصائب وحنكته وبين حياطته للدين والرعية وأخذها بالعدل والشفقة والرحمة، على شاكلة قوله:

إمامٌ له كَفٌّ يضُمُّ بَنَانُها عَصا الدينِ ممنوعاً من البَرْيِ عودُها

وعَيْنٌ محيطٌ بالبريَّة طَرْفُها سواءٌ عليه قُرْبُها وبَعيدُها

وأَصْمَعُ يقظانٌ يبيت مناجياً له في الحَنَا مستودَعاتٌ يكبدها

سميعٌ إذا ناداه في قَعْر كُرْبةٍ منادٍ كفتْه دعوةٌ لا يعيدها

---

١ حوارين: من قرى حلب. والدمنة: آثار الديار

٢ مشترك: مهموم

٣ أردية: ثياب

ونحس في هذه الأبيات مدى ما كان يأخذ نفسه به من الأناة والجهد العنيف في تصوير معانيه وصياغتها، وكان يعرف كيف يعرض المعنى في معارض مختلفة، يرفده في ذلك عقله الاعتزالى الخصب الذي لا يزال يثير في نفسه الخواطر التي تبهر السامعينم من مثل قوله في الرشيد، معيداً للمعانى السابقة في هيآت جديدة:

رَعى أمَّةَ الإسلام فهْو إمامها ... وأَدَّى إليها الحقَّ فهْو أَمينُها

ويستنتج العَقْماءَ حتى كأَنما ... تغلغل في حيث استقرَّ جَنينُها[1]

وما كلُّ موصوفٍ له الحقّ يهتدى ... ولا كلُّ من أَمَّ الصُّوَى يستبينها[2]

مقيمٌ بمُسْتَنِّ العَلا حيث تلتقى ... طوارفُ أَبكارِ الخطوب وعُونها[3]

وهو يلاحظ ما يقيم عليه الرشيد حكمه من قواعد الدين الحنيف وما سنه في حكم الرعية من العدالة وطرق الرشاد ويصور فطنته وحنكته في حل المشاكل العسرة العقيمة حتى لكأنما يستولدها ما اكتن في أعماقها وأرحامها من حلول خفية، كما يصور حزمه ونفوذه من الخطوب نفوذ السهم الصائب. وواضح ما يعنى به العتابى من دقة في معانيه وطرفة، ويروى انه دخل سراً مع المنتظلمين إلى الرشيد في بعض سخطاته عليه، فأنشده:

أَخِضْنى المُقَامَ الغَمْرَ إن كان غَرَّنى ... سنَا خُلَّبٍ أَو زلَّتِ القدمانِ[4]

أَتتركنى جَدْبَ المعيشة مُقْتِراً ... وكفَّاك من ماءِ النَّدَى تَكِفَان[5]

وتجعلنى سَهْمَ المطامع بعد ما ... بَلَلْتَ يمينى بالنَّدَى ولِسَانى

فأعجب الرشيد قوله، وأجازه جائزة سنية. وكان جعفر البرمكي أو أبو يحيى شفع له عند الرشيد في موجدة له أخرى عليه، كما اشسنرا إلى ذلك آنفاً، فقال مديحه:

---

١ العقماء: المشكلة العسرة. يستنتج: يستولد

٢ أم: قصد. الصوى: الأعلام

٣ المستن: مكان الاستنان وهو سرعة العدو. الطوارف: الحديثات. العون: جمع عوام ضد البكر

٤ المقام اتلغمر: المقام الشديد. سنا خلاب: ضوء البرقث الذي لا يعقبه مطر

٥ مقترا: ضيق الرزق. الندى: الجود. تكفان: تهلان وتسيلان

ما زلتُ في غَمرات الموت مطَّرَحاً قد ضاق عنى فسيح الأرض من حيلى[1]

ولم تزل دائباً تَسْعَى بلطفك لى حتى اختلستَ حياتى من يَدَىْ أَجلى

وهذا البحث عن المعاني النادرة أشاع في شعر العتابى ظاهرة لم تكن مألوفة هي قصر المدائح وغير المدائح مما يلم به من أغراض الشعر حتى لتصبح بيتين أو ثلاثة في كثير من الأحيان، وكأنما يتشبه في ذلك بالأمثال الفارسية القصيرة التي كان يعكف عليها والتى يمثلها خير تمثيل كتاب الأدب الصغير لابن المقفع، ومما يصور ذلك عنده أجمل تصوير ما يروى من أنه دخل على عبد الله بن طاهر يوماً فأنشده مادحاً:

حُسْنُ ظَنِّى وحُسْنُ ما عوَّد اللَّـ ـهُ سواى منك الغداةَ أتى بِى

أىُّ شىءٍ يكونُ أَحسنَ من حُسْـ ـنِ يقينٍ حَدَا إليك رِكابِى

ثم دخل عليه من الغد، فأنشده البيتين التاليين اللذين أنشدناهما في الفصل السادس:

ودُّك يكفينيك في حاجتى ورُؤْيتى كافيةٌ عن سُؤالْ

وكيف أَخشى الفقر ما عشتَ لى وإنما كفَّاك لى بيت مال

ثم دخل في اليوم الثالث، فأنشده:

بَهجاتُ الثيابِ يُخْلِقها الدَّهْـ ـرُ وثوبُ الثناء غَضٌّ جديدُ

فأكْسُنى ما يَبِيدُ أَصْلَحَلكَ اللـ ـهُ فيكسوك اللهُ ما لا يبِيدُ

وواضح أنه حول قصدية المديح إلى بيتين قصيرين، يحملان معنى طريفاً، وهو معنى لا يصل إليه إلا بعد التدبر وبعد طول الروية وبعد النظر وطول التفكير، بل بعد التوقف وطول التنقيب. وعلى نحو ما يلقانا ذلك في مديحه يلقانا في عتابه من مثل قوله:

رَحَلَ الرَّجاء إليك مُغْتَرِباً حُشِدتْ عليه نوائبُ الدَّهْرِ

ردَّتْ إليك ندامتى أملى وثَنَى إليك عِنانَه شُكْرى

---

١ غمرات: شدائد

وجعلتُ عَتْبَكَ عَتْبَ موعظةٍ ورجاءَ عفوك مُنْتَهَى عُذْرِى

وله غزليات تطبع بنفس الطوابع العقلية والخيالية، فهو ما يزال يحاول فيها استنباط المعاني والصور الدقيقة على شاكلة قوله:

رُسُلُ الضمير إليك تَتْرَى بالشوق ظالعةً وحَسْرَى[1]

ما جفَّ للعينين بَعْـ ـدك يا قريرَ العَيْن مَجْرى

إن الصبابة لم تَدَعْ كمى سوى عظمٍ مُبَرَّى[2]

ومدامعٍ عَبْرَى على كبَدٍ عليك الدَّهْرَ حَرَّى[3]

وأداه طول نظره وفحصه للمعانى إلى أن يجردها ويجسمها أحياناً، وأحياناً أخرى يتعمق فيها ويتغلغل إلى لبها، مستخرجاً بعض الصور أو بعض الحكم، من مثل قوله مجسداً لشكره:

فلو كان للشكر شَخْصٌ يبَينُ إذا ما تأَمَّله الناظرُ

لمَثَّلْتُهُ لك حتى تراه لتعلم أنى امرؤٌ شاكرُ

وقوله في ملامه الأصدقاء وتلقيها بالقبول الحسن:

لومٌ يُعيذك من سوء تُفارقهُ أَبقى لعِرْضك من قوْلٍ يُداجيكا[4]

وقد رمى بك في تَيْهاءَ مهلكةٍ من بات يكتمك العيبَ الذي فيكا[5]

وله اشعار يتناول فيها الأخلاق والطباع، محللاً لها تحليلاً بديعاً، من ذلك تصويره لمن اتبع هداه، فعدل عن محجة الخلق الحميد إلى مسارب الخلق الذميم، وإنه ليعد ذلك كفراناً لنعمة الله الذي وهب الإنسان من العقل ما يميز به الخبيث من الطيب، والضار نم النافع، فإذا هو

---

١ ظالعة: من الظلع وهو العرج من كمثرة السير. حسرى: متعبة

٢ مبرى:/ مهزول

٣ حرى: محترقة

٤ تقارفه: ترتكبه. يداجيلك: ينافقك

٥ تيهاء: فلاة مضللة

يستجيب لهواه ودواعى نفسه، ولو أنه فطمها وكبح جماحها لاستتم شكره لأنعم ربه، ولبكن انى له وفطام النفس عسير، يقول:

وكم نعمةٍ آتاكها الله جَزْلَةٍ ... مبرَّأةٍ من كلِّ خُلْقٍ يَذيمُها[1]

فسَلَّطْتَ أخلاقاً عليها ذميمةً ... تعاورْنها حتى تفرَّى أَديمُها[2]

وكنت امرءًا لو شئتَ أن تبلغ المَدَى ... بلغتَ بأَذنى نعمةٍ تستديمها

ولكطن فطام النفس أعسر محملاً ... من الصخرة الصَّمَّاء حين ترومها

وعلى هذا النحو كان العتابى لا يزال يلذ عقول سانمعيه وقلوبهم بما يورد عليهم من نوادر الأخيلة وطرائف المعاني محتالاً لذلك متلطفاً له بكل ما ادخره عقله واقتناه من بيئة المعتزلة وكنوزها الفكرية الغنية، وقد ظل الناس يفتنون بشعره، وهعو يعرض عليهم مبتكراته في معانيه حتى انتقل إلى جوار ربه سنة ثمان ومائتين.

بشر[3] بن المعتمر

شيخ معتزلة بغداد ورئيسهم، يقال إنه كوفى الأصل ولعله تحو ل منها أولاً إلى البصرة موطن المعتزلة، ثم استوطن بغداد، وقد اتخذ النخاسة حرفة له، مثله في ذلك مثل محمود الوراث، وكان أيضاً مثله زاهداً ونسكاً وعبادة. ولا نعرف بالضبط متى نظل بغداد، غير أننا نجد اسمه يلمع فيها منذ عصر الرشيد والبرامكة وقد توثقت الصلة بينه وبين الأخيرين وخاصة منهم الفضل بن يحيى البرمكي، وربما كان السبب الحقيقى في توثق هذه الصلة ما عرف عن بشر من نزعة شيعية، وكان البرامكة يتيشيعون سراً، ففسحوا له في مجالسهم، ونص كثيرون على هذه

---

١ يذيمها: يعيبها

٢ تفرى: تقطع

٣ انظر فى بشر وأخباره وأشعاره الحيوان ٤/ ٢٣٩، ٦/ ٦٢، ٩٠، ٢٨٤ وما بعدها و ٤٠٥، ٤٥٥ والبيان والتبيين ١/ ١٣٥ ومكا بعدها وأمالى المرتضى ١/ ١٨٦ ولسان الميزان ٢/ ٣٣ وفهرس الانتصار لابن الخياط المعتزلى والأنساب للمسعانى فى البشرى وفرق الشيعة للنوبختى ص ٣٥، ٣٧ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (طبعة الحلبى) ٣/ ٣١٦ والملل والنحل للشهرستانى ص ٤٤ والمواقف للإيجى (طبع بولاق) ص ٦٢٢ والفرق بين الفرق ١٤١ وضحى الإسلام ٣/ ١٤١ والمنية والأمل لابن المرتضى ص ٣١

النزعة، يقول النوبختى إنه كان يوافق الشيعة في اغلحكم على عـلى بأنـه كـان مـصيباً في حربـه لطلحة والزبير ومعاوية وأن جميع من قاتله كان على خطأ، وأيضاً كان مصيباً في قبوله التحكيم، ويقول ابن أبي الحديد: "كان بشر بن المعتمر من قدماء شيوخنا رحمه الله تعالى يقول بتفـضيلعلى عليه السلام (أى على أبي بكر وعمر) ويقـول كـان أشـجعهم وأسـخاهم، ومنـه سرى القـول بالتفضيل إلى اصحابنا (من المعتزلة) البغدادين قاطبة وفى كثير من البصريين". وقد روى له ابن المرتضى أبياتاً من أرجوزة يقول في بعض شطورها "نبرأ من عمرو ومن معاوية" خـصمى عـلى في صفين، فتشيعه لا مرية فيه ولا شك يعتريه.

وقد عرضنا في الفصل الرابع للنحلة الاعتزالية التـي تكونـت حـول آرائـه، والتـى سـميت البشرية نسبة إليه وذكرنا أن من أهم الأصول التي كان يعتنقها نظرية التولد، وكان يذهب فيهـا إلى أن كل ما يتولد من أفعالنا فينا أو في غيرنا فهو فعلنا. وذكرنـا ألأيـضاً أنـه كـان ينكـر فكـرة وجوب الأصلح على الله، إذ لا نهاية لطبقات الأصلح عند الذات العلية، ومن أجل ذلك يكون الذي يجب عليه حقاً هو تمكين العبد بما {ودع فيه من القدرة والاستطاعة. وكان ينصر القيـاس العقلى نصرة شديدة، كما كان يجل العقل إجلالاً بعيداً حتى ليرفعه إلى مرتبة مقدسة، وقد مـرت بنا في الفصل الرابع أبياته التي يشيد فيها به غشادة بالغة، لما أودع الله فيـه مـن المعرفـة الفطريـة التي تجعل الإنسان يميز الشر من الخير، ويدرك الحسن فيعتنقه والقبيح فيتجنبه، ويقـول لـولاه لذهب الإدراك والتمييز، بل لفقد الإنسان جوهر إنسانيته. وله مصنفات مختلفة تتصل باعتزاله سجلها ابن النديمف ى فهرسته.

وكان حسن الجدال قوى الحجة وعو يعدج في الذروة من فصحاء المتكلمين وبلغائهم، وقـد جعله الجاحظ أكثر المعتزلة رواية للشعر، وروى عنه في بيانه صحيفة طويلة في البلاغـة، تجعلـه واضح أصولها الأولى في صورته الدقيقة، وقد حللناهـا في كتابنـا "البلاغـة[1]: تطـور وتـاريخ" وهى تشهد له ببصره النافذ في معرفة طبقات الكلام والملاءمة بينها وبين طبقات السامعين.

---

١ انظر كتاب البلاغة: تطور وتاريخ (طبع دار النمعارف) ص ٤١ وما بعدها.

ولم يكن يروى الشعر فحسب، بل كان أيضاً بارعاً في نظمه، غير أنه لم ينظمه في الأغراض الغنائية التي تعود الشعراء أن ينظموا فيها، بل نظمه في الاتجاه التعليمي الذي كان أبان بن عبد الحميد قد برع فيه، غير أنه لم يتجه به وجهة من القصص والتاريخ والفقه والمنطق، وإنما اتجه به إلى الرد على أهل المقالات والنحل من خصوم المعتزلة، كما اتجه به إلى ذكر عجائب الله في صنوف خلقه، مما يمكن أن يدخل في التاريخ الطبيعى، ويذكر الجاحظ أنه لم ير أحد أقوى منه على المخمس والمزدوج وأنه يفوق أبانا. وليس بين أيدينا شئ من مخمساته، أما مزدوجاته فيذكر ابن المرتضى أن له مزدوجة رد فيها على جميع المخالفين للمعتزلة بلغت أربعين ألف بيت، وقد اقتبس منها قطعة أعلن فيها براءته من معاوية كما أسلفنا وكذلك ابن العاص. وأكبر الظن أن القطعة التي أنشدها له صاحب الانتصار في التبرؤ من الجهمية وصاحبهم جهم مقتبسة هي الأخرى من تلك الأرجوزة وفيها يقول:

ننفيهمُ عنا ولسنا منهمُ ... ولا همُ منا ولا نرضاهمُ

إمامُهم جَهْمٌ وما لجهْم ... وصَحْبِ عمرو ذى التقى والعلم

ومعروف أن جهماً كان يؤمن بالجبر وينفى استطاعة الإنسان وحرية إرادته مما كان يعتنقه المعتزلة واساتذتهم أمثال عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء، وروى الجاحظ في الجزء الرابع من حيوانه مقطوعة من إحدى أرلااجيزه، وربما كانت هي الأخرى من الرجوزة السالفة، وكذلك ما روى في الجزء السادس من تفضيله لعلى بن أبي طالب على الخوارج، إذ يقول:

ما كان في أَسلافهم أبو الحَسنْ ... ولا ابنُ عبَّاس ولا أَهلُ السُّنَنْ

غُرٌّ مصابيحُ الدُّجى مَنجبُ ... أَولئك الأَعلام لا الأَعاربُ

كمثل حُرْقوس ومنْ حرقوصُ ... فقعةُ قاعٍ حولها قَصِيصُ[1]

ليس من الحَنْظل يُشْتار العَسلْ ... ولا من البحور يُصْطاد الوَرَل[2]

---

١ حرقوس: من زعماء الخوارج لعهد على القصيص: شجر تنبت فى أصله الكمنأة وهى الفقع والقاع: الأرض المستوية، ويضرب الفقع مثلاً للرجل الذليل لأن الإبل تدوسه بأرجلها

٢ يشتار: يستخرج. الورل: دابة صحروايا كالضب

هيهات ما سافلةٌ كعالِيَهْ ما معدنُ الحكمة أَهلُ البادية

وروى له الجاحظ في الحيوان قصيدتين طويلتين قدم لهما بقوله: "أول ما نبدأ قبل ذكر الحشرات وأصناف الحيوان والوحش بشعر بشر بن المعتمر فإن له في هذا الباب قصيدتين قد جمع فيهما كثيراً من هذه الغرائب والفرائد، ونبه بهذا على وجوه كثيرة من الحكمة العجيبة والموعظة البليغة. ،. وإذا قسمنا ما عندنا في هذه الأصناف على بيوت هذين الشعرين وقع ذكرهما مصنفاً فيصير حينئذ آنق في الأسماع وأشد في الحفظ". وبشر يستهل القصيدة الأولى بحديثه عن طباع الإنسان وما ركب فيه من الطمع الذي يدفع الناس إلى أن يتواثبوا بعضهم على بعض تواثب الذئاب، ويفيض في صوف الحيوان والحشرات وبعض الطير وبيان طباعها وعجائب خلقها، حتى غذا بلغ ما أراد من ذلك تحول إلى إباضية الخوارج ورافضة الشيعة ممن يؤمنون بكتاب الجفر، وهو كتاب يزعمون أنه عند أئمتهم فيه كل اصناف العلم وكل ما يكون غلى يوم القيامة، وسلك مع الرافضة والإباضية الحشوية، وهو اسم كان يطلقه المعتزلة على خصومهم من المجسمة والمشبهة ومن كانوا لا يؤولون آيات التشبيه في الثرآن وإن قالوا إن الله لا يشبه شيئاً من المخلوقات، وفى ذلك يقول:

لستُ إباضِيًّا غَبيًّا ولا كرافضيٍّ غَرَّه الجَفْرُ

كما يغرُّ الآلُ في سَبْسَبٍ سَفْراً فأَوْدَى عند السَّفْرُ[1]

لسنا من الحَشْو الجفاة الأولى عابوا الذي عابوا ولم يدروا

لا تَنجع الحكمةُ فيهمْ كما يَنْبُو عن الجَرْوَلة القَطْر[2]

أولئك الداء العضال الذى أَعيا لديه الصَّابُ والمَقْرُ[3]

وفى هجومه على الشيعة القائلين بكتاب الجفر ما يدل دلالة قاطعة على أنه لم يكن يعتنق مذهب اظلإمامية كما أشرنا إلى ذلك في الفصل السادس، وقد استظهرنا هناك أنه ربما كان

---

١ الآل: السراب. السبسب: الفلاة. السفر: جماعة المسافرين

٢ الجرولة:/ الصخرة الملساء. ينبو: يزل ويسقط

٣ الصاب والمقر: نباتان شديسدا الحرارة

زيدى الهوى. وهو في القصيدة الثانية يتحدث أيضاً عن غرائب الخلق في أوابد الوحش والحشرات والطير السابح في الهواء، مستنبطاً كثيراً من العظات، ومنوهاً بالعقل وساطع نوره الذي نكتشف به مثل هذه العجائب والعبر ونفصل بين الخير والشر والنافع والضار، ويعرض في أثناء ذلك لأهل المقالات والنحل من غير المعتزلة، فيقول:

قد غمَر التقليدُ أَحْلامهم　　فناصبوا القيَّاس ذا السَّبْر

فهو يأخذ عليهم أنهم يلغون عقولهم وأنهم لا يحكمون المنطق والقياس العقلى السديد الذي به تقاس الأشياء ويسبر ويعرف غورها ومقدار ما فيها من الخطأ والصواب. وعلى هذا النحو ظل بشر مشغولاً في شعره التعليمي بالرد على خصوم المعتزلة وبيان عجائب الخلق الربانى حتى وافاه القدر في سنة عشر ومائتين.

النظام[1]

هو إبراهيم بن سيار بن هانئ، ولد ونشأ بالبصرة، وكان يحترف نظم الخرز في سوقها لأول حياته فلقب بالنظام، والمظنون أن ولادته كانت حول سنة ١٦٠ للهجرة فقد روى أنه تتلمذ للخليل بن أحمد المتوفى سنة ١٧٥ للهجرة وربما كانت ولادته تسبق التاريخ الذي ظنناه، إذ نجده يناظر ويحاول أهل الكلام في مجالس البرامكة، ومعروف أنهم نكبوا سنة ١٨٧ فلابد أن يكون قد نضج ولمع اسمه قبل هذا التاريخ مما يؤكد أن ولادته ربما سبقت سنة ١٦٠. وهو ابن ظأخت أبي الهذيل العلاف شيخ المعتزلة بالبصرة ورئيسهم بعد عمرو بن عبيد، ولعل ذلك ما جعله يشغف بالاعتزال منذ نشأته ويظهر أن خاله عنى به وبتثقيفه عناية كبيرة، وهى عناية صادفت فيه عقلاً خصباً وذكاء نادراً. وقد مضى يستوعب كل ما يمكن من كتب الاعتزال

---

١ انظر فى النظام وأخبار وأشعاره فهارس البيان والتبيين والحيوان للجاحظ وأمالى المرتضى ١/ ١٨٧ وتاريخ بغداد للخطيب البغدجادى ٦/ ٩٧ والمنية والأمل لابن المرتضى ص ٢٧ وابن المعتز ص ٢٧١ وفهارس الانتصار لابن الخياط ومقالات الإسلاميين للأشعرى ولسان الميزان ١/ ٦٧ وروضات الجنات للخوانسارى ص ٤٢ والنجوم الزاهرة ٢/ ٢٣٤ والملل والنحل للشهرستانى ص ٣٧ والفرق بين الفرق ١١٣ والمواقف ٦٢١ وانظر مروج الذهب للمسعودى ٣/ ٢٨٧ وسرح العيون لابن نباته (طبعة دار الفكر العربى) ص ٢٢٦. وضحى الإسلام ٣/ ١٠٦ وتاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور ص ٥٩

والفلسفة والتفسير والحديث والفقه والكيمياء والفلك والعلوم واللغة وكتب الأشعار والأدب وكتب الملل والنحل الإسلامية وكان خاله بارعاً في المناظرة وقطع بالخصوم بالحجج الساطعة، فتلقن ذلك عنه، بل لعله بذه فيه، وقد مر بنا في ترجمتنا لصالح بن عبد القدوس كيف تعرض له وهوحدث، فإذا هو يلقمه بمحاورته له حجراً، فلا يستطيع أن ينبس ببنت شفة، وكان كثيراً ما يظفر بخاله. وقد وقف نفسه على مناظرة الدهريين وأصحاب الملل والنحل المختلفة في عصره، وطارت شهرته في هذا الباب، لإفحامه دائماً لهم وعلوه عليهم بالأدلة الناصعة والبراهين الالقاطعة، حتى ليقول الجاحظ في حياونه: "لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل، فإن لم أقل ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم (النظام) لهلكت العوام من المعتزلة فإنى أقول إنه قد أنهج لهم سبلاً وفتق لهم أموراً واختصر لهم أبواباً ظهرت فيه المنفعة وشملتهم بها النعمة[1]". وقد كان كثير التردد على بغداد منذ عصر الرشيد، حتى إذا كانت سنة ٢٢٠ اختارها دار مقام له، وعقد لنفسه بمسجدها الكبير حلقة للمحاضرة وقرر فيها مذهبه الاعتزالى الذي نسب إليه، فتبعه- كما يقول ابن تغرى بردى- خلق كثير، مما جعل اسمه يشيع في العامة ويدور على كل لسان. ومرت بنا في الفصل الثالث كلامة موجزة عن نظريته الاعتزالية، وهى نظرية كمانت تقوم على أصول المعتزلة الخمسة التي تحدثنا عنها في غير هذا الموضع وقجد مزج في قوة بين كلام الفلسفة وأفكار المعتزلة ومال في آرائه إلى كلام الطبيعيين من الفلاسفة خاصة وانفرد من نظرائه بكثير من الآراء كقوله بأن الله لا يقدر على فعل الشر وإنه إنما يفعل الأصلح لعباده، وقوله بنفى الجوهر الفرد أو الجوزء الذي لا يتجزأ، وقوله إن اتلله خلق الكائنات دفعة واحدة معادن ونباتاً وحيواناص وإنساناً، غير أن الله أكمن بعضها في بعض، فآدم لا يتقدم خلقه على خلق أولاده، وهو مات يعرف عنده بنظرية الكمون، ومن ذلك قوله إ'ن الجوهر مؤلف من أعراض اجتمعت. وكان يعلى سلطان العقل اعلاء شديداً، ولعل ذلك هو الذي أداه إلى إنكار حجية الإجماع والقياس وكأنه خشى في الأخير إلى نقص الأصل الذي يقاس عليه، ونرى تلميذه الجاحظ المفتون به

---

١ الحيوان ٤/ ٢٠٦

يعيبه هو نفسه بأنه كان قليل التثبيت من صحة المقدمات في أقيسته، وهو دائم الإشادة بفطنته وغوصه على الدقائق ولطف مداخله إلى أعماق الحقائق.

وله شعر كثير يدور في كتب التراجم، وهو مطبوع بطوابع المتكلمين والمعتزلة منهم خاصة، إذ نراه يمزجه باصطلاحاتهم نافذاً إلى أغوار المعاني، متصرفاً فيها تصرف الحاذق الفطن، وملائماً بينها إلى أعبد حدود الملاءمة يعينه في ذلك حس دقيق مرهف وشعور رقيق حاد من مثل قوله:

وشادنٍ ينطقُ بالظَّرْفِ ... يَقْصُرُ عنه منتهى الوصفِ

رقَّ فلو بُزَّتْ سرابيلُهُ ... عُلِّقه الجَوُّ من اللّطْفِ[1]

يجرحه اللَّحْظُ بتكرارِهِ ... ويشتكى الإيماءَ بالطَّرْفِ

وكلمة اللطف في الأبايت لا تفهم بدقة إلا إذا عرفنا أن النظام كان يرى أن روح الإنسان جسم لطيف وما الجسد إلا آلتها وما الإنسان إلا الجسم اللطيف الذي يحتويه. وفى البيت الأخير مبالغة واضحة يستتم بها مبالغة البيت الذي يسبقه وقد عاد إلى توضيح هذه المبالغة ودعم صورتها، فقال:

توهَّمه طَرْفى فآلم خَدَّهُ ... فكان مكان الوهم من نظرى أَثْرُ

وصافحه قلبى فآلمَ كفَّه ... فمن صَفْح قلبى في أَنامله عَقْرُ[2]

ومرّ بقلبى خاطراً فَجَرحْتُهُ ... ولم أرَ خَلْقاً قطُّ يجرحه الفكْرُ

يمرُّ فيمن لينٍ وحُسْنِ تعطُّفٍ ... يقال به سكر وليس به سكر

وهو هم بعيد لا يقع في عقل شخص إلا أن يكون من المعتزلة الذين يبعدون في تصور الأشياء، بل إلا أن يكون من عقل النظام الذي كان يؤمن بأن الأعراض كامنة في الجوهر وأن حركطات الإنسان كانمة في نفسه وأن حركات النفس أجسام مستترة، وبذلك نفذ إلى هذا

---

١ بزت: نضيت وخلعت

٢ العقر: الجرح

التجسيم الغريب في الأبيات. ويستلهم رأيه في أن النور سمائى عدوى، يعلو فوق الأشياء ولا يعلو شئ عليه، فيقول:

أُفرِغَ من نور سمائىٍّ ... مصوَّرٌ في جسم إنْسِىٍّ

وافتقر الحسنُ إلى حُسْنه ... فجلَّ عن تحديد كيْفِىٍّ

أَبدعه الخالقُ واختارَهُ ... من مازج الأَنوار عُلْوِىٍّ

فكلٌّ من أَغرق في وصفه ... أَصبح منسوباً إلى العِىِّ

وتختلف في الأبيات فكرته عن النور بفكرته عن الأجسام وأنها أعراض متجمعة. ويتضح فيها لحن المعتزلة أو لحنه هو إذ يتحدث عن الكيف وتحديده أو بعبارة أخرى عن العرض، وهو عنده جسم. وبذلك كان يعرف كيف يتحول بالغزل إلى ضروب من الوهم المسرف في الخيال، وكذلك كان يصنع بكل ما يمسه عقله ووجدانه من أغراض الشعر كقوله يصف احتساءه للخمر من بعض الدنان:

مازلت آخذ روح الزِّقِّ في لُطُفٍ ... وأَستبيح دَمًا من غير مجروح

حتى انثنيتُ ولى روحان في جسدى ... والزِّقُّ مُطّرَحٌ جسمٌ بلا روح

وهو هنا أيضاً ينظم بعقله الاعتزالى وما كان يذهب إليه من أن الروح جسم لطيف مشابك للبدن بأجزائه تشابك المائية للود، وهى صاحبة القوة والاستطاعة والحياة والمشيئة. وله في تلميذه الجاحظ عمرو بن بحر الذي كان يبادله إعدجاباً بإعجاب وود بود:

حبى لعمرو جوهرٌ ثابتٌ ... وحبُّه لى عَرَضٌ زائلُ

به ةجهاتى الستُّ مشغولةٌ ... وهْو إلى غيرى بها مائِلُ

وواضحخ تشبثه بلغة المتكلمين وآرائهم في الجوهر والعروض والجهات الست. ولم يكن هنرك غرض ينظم فيه إلا ويدخل فيه لغة الاعتزال وما يدفع إليه من التجريد البعيد الذي يرفع الإنسان من عالم الحس إلى عالم الوهم والخيال كقوله يمدح الأمين:

أَلا يا خبرَ مَنْ رأَت العيون نظيرُك لا يُحَسُّ ولا يكونُ

وفضلُك لا يُحَدُّ ولا يحارَى ولا تَحْوِى حيازَته الظنونُ

خُلقتَ بلا مشاكلةٍ لشيءٍ فأَنت الفَوْقُ والثقلان دون

كأَن المنلك لم يك قبلُ شيئاً إلى أَن قام بالمُلْك الأَمين

وهى مبالغة مسرفة، وكأن النظام كان أحد من ثبتوا مثل هذه المبالغة في المديح، وهى مبالغة نتفذت إليه من إغراقه في الوهم استحيائه لغة المتلكلمين. وقد اختلف القدماء في السنة التي توفى فيها، فقيل سنة إحدى وعشرين ومائتين وقيل بل سنة إحدى وثلاثين، وأكبر الظن أنه حياته لم تمتد إلى السنة الأخيرة.

٥

شعراء النزعات الشعبية

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إن الشعر العباسي كان يصدر في جمهوره عن روح الشعب، فقد كانت كثرة الشعراء من الكطبقة العامة، وكانوا يحملون في صدورهم أحاسيسها ومشاعرها وإذا كان بدأً في مديحهم للخلفاء والوزراء أنهم ينفصلون عنها فإنه انفصال في الظاهر، إذ كانوا ما يزالوةن يضعون نصب اعينهم مثالية الحاكم التي تتطلبهعا الأمة والتى رسمها لها الدين الحنيف، وكمانوا في جوانب من هذا المديح ونقصد مديح القواد المظفرين يعبرون عن الحماسة المشتعلة في صدور الشباب للقضاء على أعدائهم من البيزنطيين وغير البيزنطيين. فحتى المديح لم يبعد عن روح الشعب، وكان الهجاء يصدر في وضوح عن هذه الروح، إذ مثل الشعراء فيه الخصال السيئة التي ينبغي أن يتطهر منها المجتمع، سواء فغى الأفراد العاديين أو في الحكام، ولعل ذلك هو الذي كان يشيعه على جميع الألسنة. وخذ الصورتين الأساسيتين للمجتمع صورة الترف وما يطوى فيه من مجون وصورة الشظف وعيشة الكفاف وما يطكوى فيها من زهد فستجدهما مجسمتين أقوى ما يكون من تجسيم، فحياة الحجانات والقيان والأديرة وكل ما في المجتمع من لهو ومواسم للهو، ونقصد الأعياد الإسلامية والمسيحية والمجوسية، كل ذلك مصور في شعر الشعراء، وبالمثل حياة الزهد والتقوى والعم لالصالح وكانت أكثر شيوعاً من حياة اللهو والمجون، مما جعل أشعار الزهد تجرى على كل لسان، وفى الأغانى خبر يصور ذلك أدق تصوير، إذ يروى أن الملاحين في دجلة كانوا يتغنون في نزهة للرشيد بقطعة زاهدة لأبى العتاهية تمثلنا ببعض أبياتها في غير هذا الموضه وفيها يقول[1]:

سيصيرُ المرءُ يسوماً ... جَسَداً ما فيه روحُ

كلنا في غَفْلَةٍ الـ ... ـموتُ يغدو ويَروحُ

لتموتنَّ وإن عُمِّـ ... ـرْتَ ما عُمِّر نُوحُ

---

١ أغانى ٤/ ١٠٣ وما بعهدها

ومرت بنا ترجمة أبي العتاهية قطعة يشكو فيها لبعض الخلفاء من ارتفاع الأسعار، وهو يعبر فيها عما كانت تعيش فيه طبقات الشعب الدنيا من ضنك وبؤس، وكانت الأموال حينئذ موزعة توزيعاً غير عادل، وفالخلفاء والوزراء وحواشيهما يبعيشون في الحلية والزينة وكل ما يمكن من أسباب الترف ووسائل النعيم، ويمدون من حولهم ومن يحفون بهم من المغنين والشعراء والعلماء والأتباع بكثير من هذه الوسائل والأسباب، ويثرى بعض التجار ثراء فاحشاً. وتجشم في البؤس والمسغبة كثرة الشعب التي كانت لا تجد يداً تمتد إليها وتخمد نار الفقر والشنك المشتعلة بين طبقاتها ولا من يبرد جوانحها، ويطعن الجائع فيها ويكسو العارى ويسقى الظمآن. وتلقانا أحاسيس هذه الطبقات التعسة مصورة عند شعراء الكدية الذين كانوا يشبهون طوائف الأدباتية التي كانت تنبث عندنا لأواخر القرن الماضى في اللمواسم والموالد والاحتفالات العامة، ومن خير من يمثلهم أبو فرعون الساسى، وقد أنشدنا له قطعة يصور فيها بؤسه وبؤس أولاده في الفصل الرابع وكيف يعيشون عراة جائعين، ولا من مشفق ولا رحيم، وله يصور بؤسه وفقره[1]:

ليس إِغلاقى لبابى أَنَّ لى ... فيه ما أَخشى عليه السَّرَقَا

إنما أُغلقه كى لا يرى ... سوءَ حالى مَن يجوب الطُّرُقا

منزلٌ أوطنه الفقرُ فلو ... دخل السارقُ فيه سُرِقا

ومن الشعراء الذين عاشوا في ضنك وحرمان أبو المخفف وكان في أيام المأمون، وكان يدور في بغداد يسأل الناس رغيفاً أو كسرة خبز، وله أشعار مختلفة في وصف الرغيف وكيف كان كل همه من الحياة وهم أمثاله من البؤساء الذين يعيشون على الكسر اليابسة يتبلغون بها، وهو لذلك يجعله موضع شعره في مثل قوله[2]:

دَعْ عنك رَسْمَ الدِّيارِ ... ودَعْ صِفات القِفارِ

---

١ ابن المعتز ص ٣٧٧

٢ كتاب الورقة لابن الجراح ص ١١٥

وعَدِّ من ذكر قومٍ ... قد أكثروا في العُقار[1]

ودع صفات الزنانيـ ... ـر في خصور العذارِى[2]

وصِفْ رغيفاً سَرِياً ... حكتْه شمسُ النهارِ

أَو صورةُ البدر لما أسْـ ... ـتتمَّ في الاستدارِ

فليس تَحْسن إلا ... فى وصفه أَشعارى

وذاك أَنى قديماً ... خلعت فيه عِذارى

فهو إنما يتدله في الغيف ويمتثلى به قلبه المحروم حباً وصباصة. وكان وراءه كثيرون متعففون لا يمدون أيديهم للسؤال، وربما فقدوا حتى الرغيف ولم يجدوه. ولعل شاعراً لم يصف مشاعر هذه الطبقات البائية على نحو ما وصفها أبو الشمقمق ولذلك كان ينبغي أن نقف عنده قليلاً.

أبو الشمقمق[3]

هو مروان بن محمد بصرى المنشأ والمربى، خراسانى الأصل، من موالي الأمويين، ومعنى الشمقمق الطويل، ويقال إنه كان قبيح المنظر وأضاف إلى قبح شكله خبث لسانه، فتحاماه الناس وازوروا عنه، فلم يفتحوا له ابوابهم إلا قليلاً، وسرعان ما كان الباب الذي يفتح في وجهه يغلق من دونه، فعاش فقيراً محروماً إلا من بعض ما كان يسقط إليه من قائد أو أمير أو من بعض زملائه الشعراء، في الحين الطويل بعد الحين. وقدم بغداد في أيام الرشيد والبرامكة غير أن أبوابها لم تفتح له، ولعل ذلك ما جعله يهجو الفضل بن يحيى البرمكي كما هجا منصور بن زياد كاتب الرشيد. وممن فتحوا له أبوابهم حينئذ يزيد بن مزيد الشيباني قائد الرشيد

---

١ العقار: الخمر

٢ الزنانير: جمع زنار وهو خيط كانت تلفه الجوارى على أوساطهن

٣ انظر فى كتاب أبي الشمقمق وأخباره وأشعاره ابن المعتز ص ١٢٦ وتاريخ بغداد ١٣/ ١٤٦ ومعجم الشعراء للمرزبانى ص ٣٩٦ وابن خلكان فى ترجمة مزيد بن يزيد وكتاب الورقة ص ٦٣ والعقد الفريد ٣/ ٣٥، ٦/ ٢١٥ والحيوان للجاحظ (انظر الفهرست) وكتاب البغال للجاحظ والأغانى فى ترجمة بشار بالجزء الثالث واللوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٢٨٩ والكامل لمبرد ص ٤٣١، ٤٥٩.

المشهور ممدوح مسلم بن الوليد، ومالك بن على الخزاعى أحد رجال الدولة البارزين ومحمد بن منصور بن زياد الملق بفتى اللعسكر، ولعلهم خشوا معرة لسانه. ونراه يولى وجهه نحو بعض بلدان فارس يمدح عمالها، ويقصد أبا دهمان حين ولاه يحيى بن خالد البرمكي سابور، فيحسن إليه ويمدحه ببعض شعره، ويقصد جميل بن محفوظ والى أرجان، فيلقاه لقاء سيئاً ويتولاه بهجاء مرير، ويقصد الأهواز حيث كان يتولى عمل ابن مساور الكاتب بعض اعمالها، ويعرض عنه فيصب عليه شواظاً من هجائه ويعود إلى بغداد كسيراً، فلا يجد من يقبل عليه حتى من الشعراء رفاقه، ويسلقهم بلسانه، فيعطونه النزر القليل الذي لا يكاد يسد رمقه. ويحس أنه يعيش مضيعاً، ويزيده ضياعاً أنه لم يكن فيه ما يتنافس الناس بسببه في اصطحابه ومنادمته إذ كانت العيون تقتحمه كما أسلفنا، وكانت فيه خشونة وجفوة، معه نزق وطول لسالن وتعجل في اللوم والهجاء، فساءت حالته واشتد ضيقاً وبرماً بالناس، وعاش يتجرع الفاقة والبؤس حتى قالوا إنه كان يلزم بيته في أطمار بالية وثياب خلقة متوارياً عن الناس إلا من أنس إليه.

وأشعاره تسودها روح شعبية قوية حتى في المديح، فإننا نجده لا يعنى فيه بالجزالة والرصانة التي كانت تشيع حينئذ في شعر المديح، وأيضاً فإنه لا يعنى بمعانية وأخيلته، وكأنه ينظمه عفو الخاطر، غير متأن ولا متكلف. وإذا كان مديحه يسقط عن مديح نرائه فإن إهاجيه لا تقل عن أهاجيهم إقذاعاً، بل لعل شاعراً معاصراً لم يبلغ من إقذاعه ما بلغه، إذ ملأ أهاجيه بالفحش والألفاظ البذيئة، حتى لنرى شاعراً مثل بشار المعروف بخبث لسانه يخشاه خشية شديدة، حتى ليرتب له في كل سنة مائتى درهم رجاء أن يكفغ عنه لسانه، وأتاه في بعض السنين، فحاول أن يرده، فما هو إلا أن تمتم بشطور مقعة حتى فزع بشار ودفع إليه المائتى درهم وقال له: لا يسمعن هذا منك الصبيان، وأتاه مرة أخرى، فلم يسرع له بالضريبة، وما إن قال:

سبع جوْزاتٍ وتِينه ... فتحوا باب المدينة

إن بيشار بن بُرْدٍ ... تَيْسٌ أعمى في مدينة

حتى رمى له بشار بالدراهم ،. وذكر بشار للصبيان يدل على شعبية أبي الشمقمق وأنه كان يشتق شعره من ألفاظ العامة، ولذلك كان سرعان ما يدور على ألسنة الغلمان. ومن طريف هجائه قوله في بخيل:

كفَّاه قُفْلٌ ضاع مفتاحُهُ قد يئِسَ الحدَّادُ من فَتْحِهِ

وقوله في بعض الثقلاء:

أسمجُ الناسِ جميعاً كلِّهم كذُبابٍ ساقطٍ في مَرَقةْ

ولعل أشعاراً له لم تمس قلوب الشعب كما مستها أشسعاره التي صور فيها فقره وبؤسه، ويروى أن بعض إخوانه دخل عليه يوماً فرأى سوء حاله، فأراد أن يخفف عنه ما هو فيه، فقال له أبشر أبا الشمقمق فإنه روى في بعض الحديث أن العارين في الدنيا هم الكاسون يوم القيامة، فقال ساخراً: إن كان والله ما تقول حقاً لأكونن بزازاً يوم القيامة، ثم أنشأ يقول:

أَنا في حالٍ تعالى اللـ ـه رَبِّى أَىّ حالِ

ليس لى شئٌ إذل قيـ ـل لمن ذا؟ قلت: ذا لى

ولقد أُهزِلتُ حتى مَحت الشمسُ خيالى

ولقد أَفلستُ حتى حَلَّ أكلى لعيالى

وله أشعار كثيرة يصور فيها فقره وإقلاله وأنه لا يقتنى حتى ما يكسو به السرير الذي ينام عليه وأنه لا يملك من المتاع شيئاً إلاى حصيرة وبعض السمار والأطمار الخلقة، يقول:

لو قد رأَيت سريرى كنت ترْحمنى الله يعلم ما لى فيه تَلْبيسُ[1]

والله يعلم مالى فيه شابكةٌ إلا الحصيرةُ والأطمارُ والدّيس[2]

---

١ يريد بالتلبيس ما يكسى به السرير من الحشيبة والملاءة

٢ الشابكة: ما يضم بعضه إلى بعض الديس: هوز المعروف فى مصر باسم السمار

ويقف مراراً ليصور سوء حظه وأنه أينما اتجه لم يكسب شيئاً، بل يقعد بهم العدم الذي تعوده ويقعد به سوء البخت الذي يلازمه في حله وترحاله، حتى ليجف البحر الذي يخوضه، وحتى ليستحيل الدر في يده حصى وزجاجاً والماء العذب ملحاً لا يسوغ شرابه، وفى ذلك يقول:

لو ركبت البحارَ صارتْ فِجاجا ... لا نرى في متونها أمواجاً

ولو أنى وضعتُ ياقوتةً حَمْـ ... ـراءَ فغى راحتى لصارتْ زُجاجً

ولو أنى وردتُ عَذْباً فُرَاتاً ... عاد لا شك فيبه مِلْحاً أُجاجً

ويصور لنا مسغبة عياله، وهو في الواقع إنا يصور مسغبة الطبقة العامة في بغداد التي كانت تكدح لتملأ الطبقة المترفة بطوناه، بينما تعيش هي في الشنك واتلشقاء، متمنية أن تجد الخبز والإدام، بل قد تعدم الإدام والخبز جميعاً، ومن طريف تصويره لذلك قوله:

ما جمع الناسُ لدنياهمُ ... أَنفعَ في البيت من الخُبْز

والخُبْزُ باللَّحْم إذا نلته ... فأَنمت في أَمْنٍ من التَّرْزِ[1]

وقد دنا الفِطْر وصبيانُنا ... ليسوا بذى تَمْرٍ ولا أُرْزِ

كانت لهم عنْزٌ فأُودِى بها ... وأَجدبوا من لبن العَنْز[2]

فلو رأَوا خُبْزاً على شَاهِق ... لأَسرعوا للخبز بِالجَمْزِ[3]

ولو أَطاقوا القَفْز ما فاتهم ... وكيف للجائع بالقَفْزِ

ويكثر من حديثه عن البراغيث ولذعها لجسده، كما يكثر من حديثه عن خحلو داره من الكعام، حتى لتعبث بها الجرذان وابن عرس، بل إنها لتدرج من حوله وتعبث ببعض جسده، وتيأس منه ومن طعامه، فتفر على وجهها تبحث عن غذائها، ولا يبقى معه في البيت سوى

---

١ الترز: الهلاك

٢ أودى بها: هلكت

٣ الجمز: القفز

السنور أو الهر، وإنه ليبكى حاله، إذ لا لا يجد الفأر الذي تعود أن يصيده، فيفارقه إلى غير مآب، ومن بعض قوله في ذلك:

ولاقد قلتُ حين أجْحرنى البَرْ ... دُ كما تُجْحِرُ الكلابُ ثُعالَهْ[1]

فى بُيَيْتٍ من النضارة قَفْرٍ ... ليس فيه إلا النَّوَى والنُّخالة [2]

فارقته الجُرْذان من قِلَّة الخَبـ ... ـر طار الذبابُ نحو زُبالة[3]

هارباتٍ منه إلى كل خصبٍ ... حين لم يرتجين منه بُلاله[4]

وأَقام السِّنَّوْرُ فيه وبِشَرٍّ ... يسأَل الله ذا العُلا والجَلاله

أَن يرى فأرةً فلم ير شيئاً ... ناكساً رأسه لطول الملاله

قلت صَبْرا يا نازُ رأسَ السَّنا ... نير وعَلَّلْته بحُسن مقالَه[5]

قال: لا صَبْرَ لى وكيف مقامى ... فى قفارٍ كمثل بِيدِ تَبَالَه[6]

ثم ولَّى كأَنه شَيْخُ سوءٍ ... أَخرجوه من مَحْبِسٍ بكفالة

وعلى هذا النحو كان ابو الشمقمق يخلط تصوير تعاسته وتعاسة أمثاله من أفراد الشعهب بالفكاهة، وكمان ما ينى يصور أحاسيس الفقر وضيق ذات اليد، وكان الناس يقبلون على شعره إقبالاً شديسداً، حتى ليروى الجاحظ في الجزء الأول من حيوانه أن منهم من كان ينفق على كتابته نفقةو واسعة، متخذاً له الجلود الكوفية الثمينة. وفى طبقات الشعراء لابين المعتز أن أبا الشمقمق توفى في حدود الثمانين ومائة، ولعل الخبر الذي ساقه عنه والذى يدل على أنه لحق عصر المأمون منحول عليه.

---

١ أجحره: أدخله فى الجحر. ثم\عالة: الثعب

٢ بييت: تصغير بيت. النضارة: النعيم

٣ زبالة: موضع فى صحراء الكوفة

٤ بلالة العيش: ما يسد الرمق

٥ ناز: اسم السنور بالفراسية

٦ بيد: جمع بيداء وهى الفلاة. وتبالة: بلدة فى الطريق من الطائ إلى اليمن